الدكتور علي عبد الواحد وافى

الهنود الحمر

٨٨
اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ — مارس سنة ١٩٥٠





[اللوحة الأولى]

رئيس لإحدى عشائر « السيو »
من الهنود الحمر



[اللوحة رقم ٢]

رئيسان لعشيرتين من عشائر «الأقدام السوداء» مع أفراد أسرتيهما ، وهم جميعاً فى ملابس الحفلات

الباب الأول

نظرة عامة فى الهنود الحمر

١

اسم الهنود الحمر
أخطاء التسمية ومنشؤها

يطلق اسم الهنود الحمر ، أو الهنود ذوى البشرة الحمراء «Indiens Peaux-Rouges» ، على السكان الأصليين لأمريكا الشمالية . وهم قوم ليسوا هنوداً ولا يمتون بصلة ما إلى الهنود ، وليسوا حمراً ولا فى بشرتهم شية ما من هذا اللون .

أما أنهم ليسوا هنوداً ، فذلك أن الهنود شعوب عريقة فى الحضارة تسكن جزءاً شهيراً فى الدنيا القديمة بقارة آسيا يسمى الهندوستان أو بلاد الهند ؛ على حين أن ما يسمونهم « الهنود الحمر » عشائر بدائية يتألف منهم السكان الأصليون لقسم من الدنيا الجديدة يبعد بعداً كبيراً عن بلاد الهند :

وما أعظم الفرق بين أولئك وهؤلاء !

وأما أنهم ليسوا حُمراً، فذلك أن ألوان بشرتهم كانت تختلف باختلاف بيئاتهم وقبائلهم وتتردد بين الأصفر والأبيض والأسمر والأسود ؛ ولكن لم يكن من بينها مطلقاً أى مظهر من مظاهر اللون الأحمر أو ما يقرب منه .

وقد نشأ الخطأ فى تسميتهم هنوداً عن وهم تاريخىّ جغرافى . وذلك أن كريستوف كولب «Christophe-Colomb» الذى يرجع إليه الفضل فى الكشف عن أمريكا قد خُيِّل إليه حينما وصل إلى هذه القارة عن طريق المحيط الأطلانطيق أنه قد وصل إلى بلاد الهند عن طريق بحرى غير الطريق المعهود حينئذ ؛ فسمى أول من شاهدهم من الأناسىّ فى هذه البلاد باسم الهنود . ومع أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت بعد قليل ، وتبين أن البلاد بلاد جديدة لا علاقة لها بالهند ، وأن الشعب شعب جديد لا صلة له بالهنود ، فقد ظل اسم « الهنود » عالقاً بهذه القبائل ، واسم « بلاد الهند » عالقاً ببلادهم إلى الوقت الحاضر ، بعد أن أضيف وصف « الحمر » إلى كلمة الهنود تمييزاً لهم عن سكان الهند ،

ووصف « الغربية » «Indes Occidentale» إلى كلمة الهند تمييزاً لبلادهم عن بلاد الهند .

وأما الخطأ فى تسميتهم « حمراً » ، فيظهر أنه قد نشأ عن وهم حسىّ اجتماعى . وذلك أن هؤلاء البدائيين كانوا إذا نفروا للحرب صبغوا وجوههم بصبغة حمراء قانية أو لبسوا أقنعة مصبوغة بهذا اللون ، وكان بعضهم يفعل شيئاً من ذلك إذا خرج للصيد . فلعلّ أول من شاهدهم من الأوربيين على هذه الصورة قد ظن أن ألوان بشرتهم حمراء ، أو قد استوقف نظره براعتهم فى هذا التاوين الصناعى فأطلق عليهم هذا الوصف الذى خلده الاستعمال فيما بعد .

٢

أصولهم ومواطنهم الأولى

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً فى المواطن الأولى التى وفد منها الهنود الحمر وسائر السكان الأصليين لقارة

أمريكا ، ولم يغادروا أى احتمال ممكن إلا افترضوه وتلمسوا من الشواهد ما يؤيده .

فبعضهم يرى أن الإنسان على العموم قد نشأ فى قارة آسيا ، ثم انتشر منها فى سائر القارات الأخرى . وقد نزح منها إلى قارة أمريكا عن طريق بهرنج ، الذى كان فى الأصل برزخاً كبيراً يابساً يصل بين آسيا وأمريكا ، ثم أخذت مياه المحيطات تنتقصه من أطرافه حتى أتت عليه ، وأصبح الآن بوغازاً مائياً يفصل بين القارتين . فالهنود الحمر وسائر السكان الأصليين لأمريكا يرجع أصلهم إذن إلى آسيا . وكانت سيبيريا آخر موطن فى آسيا لآبائهم الأولين ؛ ومن سيبيريا انحدروا عن طريق بهرنج إلى ألاسكا ؛ ثم انتشروا فى مختلف أنحاء الدنيا الجديدة . ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما ثبت لدى الباحثين من علماء الأجناس من وجوه الشبه الواضحة فى النواحى الجسمية وغيرها بين سكان سيبيريا الشرقية بآسيا وعشائر الهنود الحمر بأمريكا الشمالية ، وخاصة العشائر التى تسكن شمالها الغربى فى منطقة ألاسكا وما إليها .

وبعضهم يرى أنه من الممكن أن تكون موجة الهجرة الإنسانية قد سارت فى عكس الطريق الذى يرسمه أصحاب المذهب السابق ، أى من أمريكا إلى آسيا ، وأن يكون سكان سيبيريا وما إليها من بلاد آسيا قد انحدروا إليها من شمال أمريكا عن طريق برزخ بهرنج . ويؤيد هذا الفريق مذهبه بماثبت لدى الباحثين بصدد التاريخ الطبيعى لفصيلة الخيل ، وهو تاريخ واضح المعالم ، متميز المراحل ، يقينى الحقائق ، لم يصل إلى درجة وضوحه تاريخ أى حيوان آخر . فقد أصبح من المقرر فى هذا التاريخ — فى ضوء ما كشفه الباحثون من حفريات — أن أمريكا كانت الموطن الأصلى لفصيلة الخيل ، ومن أمريكا انتشرت هذه الفصيلة فى سيبيريا عن طريق بهرنج ، ثم انتشرت من سيبيريا إلى أوربا ، ومن أوربا إلى سائر أنحاء الدنيا القديمة . فمن الممكن إذن أن يكون الإنسان قد سلك فى هجرته السبيل نفسها التى سلكها الحصان ، وأن يكون التشابه الذى ألمعنا إليه فيما سبق بين سكان سيبيريا الشرقية والهنود الحمر منشؤه أن الهنود الحمر كانوا أصلا لسكان سيبير يا الشرقية

لا العكس كما يزعم أصحاب المذهب السابق .

وبعضهم يرى أنه من الممكن أن يكون الهنود الحمر وسائر السكان الأصليين لأمريكا قد نزحوا إليها من أطراف أوربا عن طريق قارة قديمة يسمونها الأتلنتيد «L'Atlantide» كانت تشغل حيزاً كبيراً فى شمال المحيط الأطلسى وتصل أوربا بأمريكا ، ثم طغت عليها فيما بعد مياه البحار . ويستدل هذا الفريق على صحة فرضه بوجوه الشبه وأواصر القرابة التى ظن بعض الباحثين فى اللغات وجودها بين بعض اللهجات الأوربية وبعض لهجات الهنود الحمر .

وبعضهم يرى أن الهنود الحمر قد نزحوا إلى أمريكا من أستراليا والجزر المحيطة بها ، وخاصة من مناطق الملايا وبولينيزيا . ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما بين الهنود الحمر والسكان الأصليين لأستراليا من شبه واضح فى التكوين الجسمى والشعبي وفى بعض ظواهر اللغة ، وتقارب كبير فى الأصول العامة التى تقوم عليها عقائد الدين وقواعد الأسرة ونظم الاجتماع .

وأدنى المذاهب جميعاً إلى الصحة فى هذا الصدد هو



[اللوحة رقم ٣]

فى اليمين محارب من عشائر «الثعلب»
وفى الشمال محارب من عشائر «السيو»



[اللوحة رقم ٤]

فى اليمين امرأة من عشائر السيو فى حلة مزينة بأسنان بعض الحيوانات وفى الشمال محارب من عشائر المندان .

المذهب الذى يجمع بين الرأيين الأول والأخير والذى يميل إليه العلامة الدكتور پول ريڤيه «Dr Paul Rivet» إذ يقرر « أنه مما لا شك فيه أن عناصر أسترالية وميلانيزية قد تسربت إلى أمريكا ونشأ منها بعض عناصر الهنود الحمر ؛ ولكن مما لا شك فيه كذلك ، ومما يؤيده جميع الثقات من الباحثين فى شعوب أمريكا «Américanistes» أن القسم الأكبر من الهنود الحمر ومن السكان الأصليين لأمريكا على العموم قد انحدر من آسيا » .

٣

حضاراتهم قديماً وحديثاً

ومهما يكن من شيء بصدد المواطن الأولى التى وفد منها الهنود الحمر ، فمن المحقق أنهم قضوا فى موطنهم الجديد قبل أن يكتشفه الأوربيون حقبة طويلة اجتازوا فى أثنائها مراحل كثيرة فى ميادين التطور الجسمى والعقلى والاجتماعى وفى شئون الحضارة العامة . ويظهر أنه قد مرت بهم عصور

حضارة زاهرة ، ثم ارتكسوا من بعدها إلى الحالة البدائية التى كانوا عليها حين كشف عنهم الأوربيون . ويدل على ذلك تلك المبانى الأثرية العجيبة التى وجدت منثرة فيما نسميه الآن بالولايات المتحدة والتى تشهد بحضارة إنسانية كبيرة نعِمت بها هذه المناطق ونعم بها سكانها فى فترة ما من تاريخها القديم . وتنتظم هذه المبانى الأثرية طوائف مختلفات فى نوعها ومناطقها . فمنها ما يسمى بالحصون «Mounds» التى يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثين متراً بل إلى أكثر من ذلك أحياناً ، ويتألف معظمها من أضرحة ومقابر . وقد عُثر فيها بجانب رفات الموتى ، على أوان ومواعين وأثاث وزخارف وآثار أخرى كثيرة مصنوعة من الأحجار والذهب والنحاس . ومنها ما يسمى مساكن السدود أو الحواجز «cliff-dwellings» . ومنها ما يسمى بالقرى «pueblos» (القرى باللغة الإسبانية) .

وحتى فى العصر نفسه الذى بدأ فيه الاستعمار الأوربى ، كان فى قارة أمريكا شعوب تنعم بحضارة موطدة وملك كبير ، كشعوب الإنكا «Incas» التى كانت تسكن منطقة بيرو

وشعوب الأزتك «Aztèques» التى كانت تسكن بلاد المكسيك . وقد كاد سنا حضارتهم يذهب بأبصار المستعمرين الأولين من الإسبان ؛ فرأوا أنه لا يستتب لهم أمر إلا إذا أتوا على قواعد هذه الحضارة وأبادوا هذه الشعوب ؛ فطفقوا يسلطون عليهم وعلى بلادهم وآثارهم معاول التدمير والفناء حتى تم لهم غرضهم الأثيم . غير أن هذه الشعوب — وإن تألف منها قسم من السكان الأصليين لقارة أمريكا — ليست من شعوب الهنود الحمر الذين نتحدث عنهم ، كما أن مساكنهم تبعد كثيراً إلى الجنوب عن المناطق التى كان يسكنها أو يتنقل فيها عشائر الهنود الحمر .

٤

تخلخلهم وأسبابه

ومع أن الهنود الحمر كانوا يسكنون منطقة واسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، بل قارة كبيرة من أكبر قارات العالم ، فإن عددهم فى فاتحة الاستعمار الأوربى ما كان يتجاوز

ثلثمائة ألف نسمة . ولعل التبعة فى تخلخلهم هذا وفى تعويق نموهم يرجع على الأخص إلى مظاهر النشاط التى سنعالجها بتفصيل فى البابين الثانى والثالث من هذا الكتاب ، وهى القتال والفروسية والصيد . فقد استحوذت عليهم نزعة الحرب ، وحببت إليهم الفروسية خوض المعارك ، فأصبحوا لا يسأمون الصراع ، ولا يملّون المنايا ، ولا يجدون سعادتهم إلا فى ميادين القتال ؛ وأخذت حروبهم الأهلية لا يخفت لها دوىّ ، ولا يخمد لها سعير ، حتى مزّقتهم شر ممزق ، ووقفت بنموهم إلى الحد الضئيل الذى ذكرناه . وأسلوب الصيد البرىّ الذى كانوا يسيرون عليه كان قائماً على البحث عما تجود به الطبيعة وحدها من حيوان والعمل على إبادته واستهلاكه لسد الحاجات العاجلة للإنسان ، بدون نظر إلى المستقبل ولا حرص على بقاء هذا المورد ولا على نمائه . وغنى عن البيان أن أسلوباً هذا شأنه ، وما يقتضيه من حياة التنقل والنجعة فى البحث عن الحيوانات ومطاردة قطعانها ، كل ذلك يعرض الشعوب للمتاعب والمجاعات ، ويحول دون اطمئنانها واستقرارها ، ويعوق تقدمها ونموها ،

ولا يتفق فى شىء مع ما تتطلبه الحضارة والحياة الاجتماعية الراقية . ولذلك ظلت جميع الشعوب التى كانت تقتصر فى سد حاجاتها على الصيد البرى متأخرة فى جميع مظاهر حياتها بطيئة فى نموها .

٥

أقسامهم بحسب أساليب الحياة والمهنة السائدة

هنود السهول وأهم قبائلهم

ومع أن معظم الهنود الحمر كانوا يعتمدون فى حياتهم على الصيد البرى فى سهول أمريكا ، فإن بعض عشائرهم كانت تسلك فى حياتها مناهج أخرى . ومن الممكن تقسيمهم جميعاً بحسب المهنة السائدة وأساليب الحياة إلى ثلاث طوائف .

١ — هنود البحيرات والأنهار «Indiens des lacs et des fleuves» ؛ وهم الذين كانوا يسكنون بالقرب من سواحل البحيرات والأنهار ويعتمدون فى سد حاجاتهم على الصيد

المائى . وقد وجد هؤلاء بجانبهم موارد رزق لا ينضب لها معين ، فأعفاهم هذا من مشاق التنقل وأغراهم بالاستقرار .

٢ — هنود الغابات «Indiens des forêts» ؛ وهم الذين كانوا يسكنون بالقرب من الغابات ، ويعتمدون فى سدّ حاجاتهم على صيد حيوانها البرى والانتفاع بنباتها . وكان معظم هؤلاء يميلون كذلك إلى الاستقرار فى مناطق ثابتة لا يبرحونها . وقد يسر لهم هذا الاستقرار غزارة الموارد الحيوانية والنباتية المتاخمة لديارهم ، واستقرار هذه الموارد نفسها : فالنبات ثابت بطبعه ؛ وحيوان الغابة لا تتجاوز تنقلاته نطاقاً محدوداً . (انظر مثالا لمساكن هذه الطائفة والطائفة السابقة فى اللوحة رقم ٥ صفحة ٢٣)

٣ — هنود السهول «Indiens des plaines» ؛ وهم الذين كانوا يعتمدون فى سد حاجاتهم على الصيد البرىّ لحيوان السهول ، وكانت حياتهم حياة بداوة ونُجعة وضرب فى الأرض . وقد حملهم على ذلك طبيعة المورد نفسه الذى يعتمدون عليه . فحيوان السهول حيوان متنقل مهاجر بطبعه ؛ فكان لزاماً — وهو قوام حياتهم — أن يرحلوا معه حيثما رحل . هذا إلى أنهم كانوا كلما نزلوا منطقة لا تلبث حيواناتها

أن تنفد أو تشرف على النفاد أو تهاجر إلى منطقة أخرى تحت تأثير ما يشنونه عليها من غارات الصيد والمطاردة ، فيتجاوزونها إلى منطقة أخرى وهكذا دواليك .

(انظر مثالا لمساكن هذه الطائفة في اللوحة رقم ٦ ص٢٤) .

وكانت السهول التي يتنقلون فيها واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، تشمل المنطقة الوسطى جميعها من البلاد التي نسميها الآن بالولايات المتحدة .

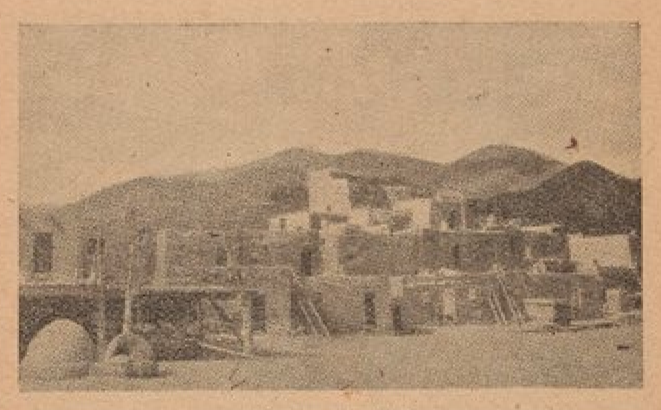
ومن هنود السهول يتألف أهم قبائل الهنود الحمر وأكثرها عدداً وأعظمها شأناً فى التاريخ ؛ حتى إن كلمة « الهنود الحمر » تكاد تكون مقصورة عليهم فى استخدامها المألوف .

ومن هذا القسم وحده تستمد بحوثنا مادتها ، وحول قبائله وحدها سيدور جميع حديثنا فى هذا الكتاب .

وينشعب هنود السهول إلى عدة قبائل تنتظم كل قبيلة منها عشائر كثيرة . ومن أهم قبائلهم قبائل السيو «Les Sioux» التى كان لها أكبر أثر فى تاريخ الهنود الحمر على العموم وفى تاريخ حروبهم مع الأوربيين بوجه خاص ؛ وقبائل الأقدام السوداء «Les Pieds-Noirs» التى كانت فى

صراع دائم مع جيرانها السيو ، حتى دخل الأوربيون بلاد هؤلاء وأولئك ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، فألّفت نكبتهم المشتركة بين قلوبهم ، وتضافروا على قتال عدوهم الدخيل ؛ وقبائل الكومانشي «Les Commanches» الذين وصلوا إلى منزلة منقطعة النظير فى تجويد الفروسية والإلمام بطبائع الخيل وإتقان الخداع فى القتال ؛ وقبائل الشيين «Les Cheyennes» الذين كانت لهم أيام مجيدة فى صراع الهنود الحمر مع الأوربيين ، وكانوا مبرزين فى حلبات الصيد ، وخاصة صيد الحصان الوحشى ؛ وقبائل الأباش «Les Appaches» الذين اتخذوا الحرب وتعذيب الأسرى والتمثيل بجسوم الأعداء هواية وحرفة ، فنشروا الذعر والخراب والدمار فى جميع أرجاء القارة ، وتجرعت كئوسهم مترعة معظم عشائر الهنود الحمر ، ثم تجرعها أخيراً الأوربيون أنفسهم فى بلاد المكسيك .

(انظر صوراً لأفراد من مختلف هذه العشائر فى اللوحات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ فى صفحات ٥ ، ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠) .



[اللوحة رقم ٥]

مثال للمساكن المستقرة لهذه الشعوب (وهى قرية فى المنطقة الشمالية من بلاد المكسيك مبنية منازلها من اللبن) .





[اللوحة رقم ٦]

مثال للمساكن المتنقلة لهذه الشعوب (وهى خيمة يتخذها عشائر «الأقدام السوداء» من جلد الجاموس الوحشى بعد دبغه وتزيينه برسم أشكال وحيوانات على ظاهره)

٦

اختلاف ألوانهم وألسنتهم وصفاتهم الجسمية

وكما كان الهنود الحمر يختلفون فى مواطنهم وأساليب حياتهم وما يزاولونه من حرف ، كانوا يختلفون كذلك اختلافاً كبيراً فى ألوان بشرتهم وشعرهم وعيونهم وفى طول قاماتهم وتكوينهم الجسمى على العموم وفى وسائل تعبيرهم ولغاتهم ولهجاتهم ؛ حتى إن الخلاف بين قبيلة وقبيلة فى هذه الأمور وما إليها كان لا يقل أحياناً عن الخلاف بين عربى ونرويجى أو بين تركى وإنجليزى .

ففيما يتعلق بألوان بشرتهم كان منهم ذوو اللون الأصفر الذين يشبهون سكان الملايا ، وذوو اللون الأبيض الذين يشبهون الأوربيين ، وذوو اللون الأسمر أو الأدهم الذين يشبهون الأحباش والسنغاليين .

وكذلك كان اختلافهم فى ألوان شعرهم وعيونهم وطول قاماتهم وشكل أنوفهم وسائر مظاهر تكوينهم الجسمى .
فعشائر السيو مثلا كانوا يمتازون بطول القامة وانثناء أرنبة

الأنف كمنقار النسر وسمرة الشعر سمرة قاتمة ؛ على حين أن الكومانش كانوا ربعات القامة ، ليسوا طوالا ولا قصاراً ، معتدلى الأنوف ، سود الشعور ، يمتازون بجمال الوجه وكمال التناسق فى أجزائه . وكثيراً ما كانت عشائر القبيلة الواحدة تختلف فيما بينها اختلافاً غير يسير فى هذه الشئون . وقد تشذ أحياناً عشيرة ما فى هذا الصدد شذوذاً كبيراً عن سائر عشائر القبيلة ؛ فعشائر المندان مثلا «Mandans» وهى إحدى عشائر السيو كانت تختلف عن سائر بنى عمومتها اختلافاً كبيراً فى هذه الصفات . بل لقد لاحظ العلامة كتلان «Catlin» أن من بين بطون هذه العشيرة أسرات يمتاز أفرادها بزرقة العيون وشعر كشعر الإنجليز ومن إليهم فى لونه واسترساله ؛ حتى لقد ظن بعضهم أن عشيرة المندان هذه أو بعض شعبها منحدرة من عشائر الكلت «Celtes» الأوربية لشدة شبهها بالأوربيين فى التكوين الجسمى ولون الشعر والعيون.

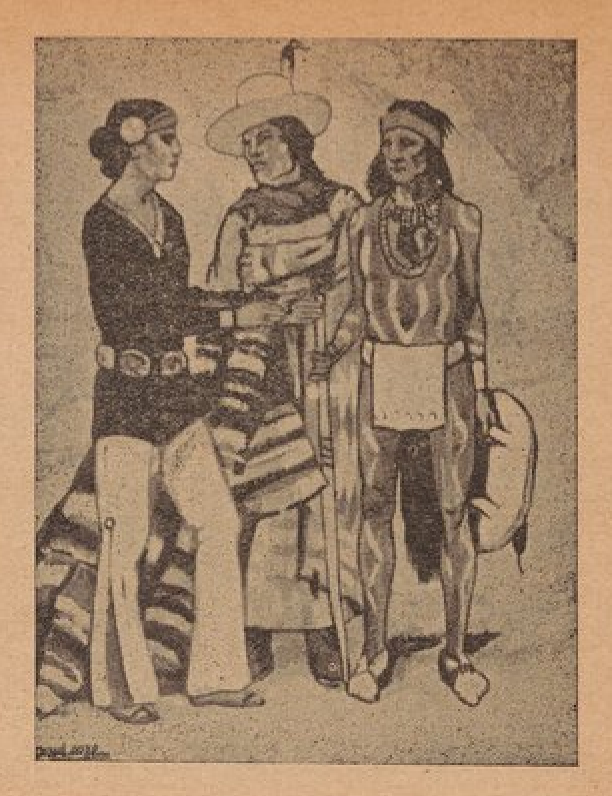
(انظر صوراً لأفراد من مختلف هذه العشائر فى اللوحات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ بصفحات ٥ ، ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠) .

ولا يقل اختلافهم فى وسائل التعبير واللغات واللهجات عن اختلافهم فى صفات الجسم. فقد بلغت اللغات المستخدمة عند السكان الأصليين لأمريكا الشمالية – حسب أحدث البحوث اللغوية – سبعاً وعشرين فصيلة تشتمل كل فصيلة منها على عدد كبير من الشعب وكل شعبة على عدة لغات وكل لغة على عدة لهجات ، وتختلف كل فصيلة منها عما عداها فى شئون الصوت والبنية والقواعد والدلالة وسائر مظاهر التعبير اختلافاً جوهرياً لا يقل عن اختلاف الفصيلة السامية عن الفصيلة الهندية – الأوربية .

ومن أشهر هذه الفصائل الفصيلة الإسكيموية ، وهى المستخدمة عند عشائر الإسكيمو التى تسكن المناطق القطبية ؛ والفصيلة الإيروكوية «Iroquois» ، وهى المستخدمة عند قبائل الإيروكويين التى تسكن المنطقة الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحيرتى إرى وأونتاريو Erie, Ontario بالقرب من السواحل الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة ؛ والفصيلة الألجونكية « famille algonquine » التى كان يتكلم بها قبائل الألجونكيين «Algonquins» التى

كانت تسكن فى شرق أمريكا الشمالية مناطق واسعة تمتد من جنوب نهر سان لوران «Saint-Laurent» حتى جبال الألجانيز «Alleghanys» ولا نكاد نعثر منها الآن إلا على بعض عشائر مبعثرة فى بلاد كندا ، ومن هذه الفصيلة اللغوية شعبة مستخدمة بين هنود السهول وهى الشعبة الشيينية «groupe Seyen» التى يتكلم بها عشائر الشيين «Cheyennes» وهم فرع من قبائل الألجونكيين) ؛ وفصيلة لغات السيو ، التى كانت مستخدمة عند عشائر السيو السابق ذكرها، وهذه هى أهم فصيلة كانت سائدة بين هنود السهول ، وكانت تنقسم إلى عدة شعب ولغات ولهجات .

ولشدة الاختلاف بين الهنود الحمر فى لغاتهم ولهجاتهم كانت العشائر المختلفة تستخدم فى الغالب لتفاهمها بعضها مع بعض لغة الإشارات باليد وأجزاء الجسم والثياب . فكان إذا التقى أحد الهنود الحمر بآخر من غير عشيرته مختلف عنه فى اللغة ، كانا يلجآن فى تعبيرهما إلى لغة الإشارات التى كانت تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر فيها أيما مهارة ، حتى لقد كان فى إمكان



[اللوحة رقم ٧]

فى اليمين : محارب من عشائر « الأپاش » فى لباس حربى حاملا قوسه وترسه .

فى الوسط : أحد سكان القرى فى زى يحاكى زى الأوربيين .

فى اليسار : أحد عشائر « النافاهو » فى لباس جميل مرصع بحلى من فضة .



[اللوحة رقم ٨]

رئيس لإحدى عشائر «الـكومانش» مع زوجتيه

المتخاطبين أن يظلا يوماً كاملا يتحدثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين والثياب وأن نقص كل منهما على الآخر كل ما يود أن يقصه عليه .

هذا إلى أن بعض عشائر الهنود الحمر كانت لا تكاد تستخدم فى تفاهم أفرادها بعضهم مع بعض ، ولا فى تفاهمهم مع غيرهم ، إلا هذه الإشارات . وكان يتكون منها حينئذ لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف . ويسمى هذا النوع « لغة الإشارات » أو « الإشارات التحليلية » «gestes analytiques» الذى عنى بدراسته عدد كبير من علماء الإتنوجرافيا والاجتماع .



٧

اتفاقهم فى أصول النظام الاجتماعى

نظام التوتم وصلته بمختلف شئون الحياة

على الرغم من اختلاف هذه القبائل فى جميع التفاصيل السابق ذكرها وفى غيرها مما شاكلها ، فإنها كانت متشابهة تشابهاً كبيراً يصل أحياناً إلى درجة الاتفاق الكامل فى الأسس العامة التى يقوم عليها النظام الاجتماعى . فقد كانت هذه الأسس ترجع جميعاً إلى النظام التوتمى «totemisme» أى اعتقاد العشيرة أنها تنتمى إلى توتم خاص «totem» . والتوتم نوع من الحيوان أو النبات أو الجماد أو مظاهر الطبيعة تتخذه العشيرة رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . ويلاحظ أن معظم التواتم تتألف من أنواع من الحيوان والنبات ، وأن الحيوانى منها أكثر من النباتى . ويندر أن يكون التوتم من الجماد أو من

مظاهر الطبيعة . فمن بين التواتم الخمسمائة التى كشفها الأستاذ هويت «Howitt» عند العشائر الجنوبية الشرقية من سكان أستراليا الأصليين ، يرجع أربعمائة وستون إلى أنواع حيوانية ونباتية وأربعون فقط إلى أنواع أخرى يتألف معظمها من مظاهر السماء والجو والطبيعة كالسحاب والمطر والبرد والريح والفصول الأربعة والشمس والقمر وبعض الكواكب والماء والنار والدخان والبحار . . . . . وهلم جرا .

والغالب فى التوتم أن يكون نوعاً لا فرداً معيناً أو أفراداً معينين . فالعشيرة لا تنتمى مثلا إلى ذئب معين أو نمر معين ، وإنما تنتمى إلى فصيلة الذئب أو فصيلة النمر .

فانتماء مجموعة من الأفراد لتوتم واحد كان يجعلهم أفراد عشيرة واحدة بل أسرة واحدة ، ويربط بعضهم ببعض برابطة قرابة قوية متحدة فى درجتها وقوتها . وكان هذا النظام يتجه بعقائد كل عشيرة وتفكيرها وفهمها للعالم ولما وراء الطبيعة وجهة خاصة ، ويرسم لها مناهج معينة فى مختلف شئونها الاجتماعية وفى تنظيم العلاقات التى تربط أفرادها بعضهم ببعض وتربطهم بمن عداهم من الأناسى وبما

عداهم من ظواهر الكون ، ويضع لسائر مظاهر نشاطها ونشاط أفرادها قواعد مضبوطة ثابتة . فلهذا النظام الأساسى كانت تخضع جميع النظم الاجتماعية الأخرى ، وعن تعاليمه وأصوله كانت تنشعب قواعد الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد والقضاء والأسرة والتربية والفنون . . . وسائر ظاهرات العمران .

٨

عناية علماء الاجتماع بدراسة هؤلاء البدائيين
مبلغ تمثيلهم للإنسانية فى أقدم عهودها

وقد عنى علماء الاجتماع والإتنوجرافيا أيما عناية بدراسة الشعوب البدائية ونظامها التوتمى وما انشعب عنه من نظم اجتماعية أخرى ، حتى لقد شغلت بحوثهم فى هذه الأمور مئات من المجلدات ، وطغت على جميع ما عداها من بحوث علم الاجتماع . ولا يرجع السبب فى ذلك إلى طرافة هذه النظم وغرابتها وأهميتها فى ذاتها فحسب ، وإنما يرجع كذلك إلى أنها تنير أمامنا الطريق للوقوف على الأصول القديمة

لنظم الاجتماع الإنسانى ، وتعرض لنا نماذج مما كانت عليه المجتمعات الإنسانية فى نشأتها الأولى . وذلك أنه قد جرت عادة علماء الاجتماع أن يعتبروا بعض الشعوب البدائية ، وخاصة السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا ، ممثلة ، إلى حد ما لما كانت عليه الإنسانية فى فجر نشأتها . وذلك لأن هذه الشعوب قد ظلت أمداً طويلا بمعزل عن التيارات الحضارية الكبرى التى توالى ظهورها بين سكان القارات القديمة ؛ فكان طبيعياً إذن أن تظل هذه الشعوب جامدة على حالتها القديمة أو ما يقرب منها ، وألا تتزحزح كثيراً عن أقدم الأوضاع التى كانت عليها الجماعات الإنسانية . وليس معنى ذلك أنها قد سلمت من التطور ، وأفلتت من قانونه ؛ لأن التطور هو سنة الاجتماع ، وناموس الكائنات الحية على الإطلاق . ولكن انعزالها عن أمم العالم القديم ، وبعدها عن تيارات الحضارة التى اعتورته ، كل ذلك قد ساعد على احتفاظها بكثير من النظم التى سارت عليها المجتمعات الإنسانية فى أقدم عهودها . فهذه الشعوب فى نظر بعض علماء الاجتماع بمنزلة المتاحف فى نظر علماء الآثار.

٩

موضوع البابين الآتيين

هذا ، وسندرس فى شىء من التفصيل ، فى البابين الباقيين من هذا الكتاب ، ثلاث نواح من مظاهر النشاط الاجتماعى عند سكان السهول من الهنود الحمر ، وهى الصيد والفروسية والقتال .

وهذه النواحى الثلاث تربطها بعضها ببعض روابط وثيقة حتى لتبدو كأنها مجرد مظاهر لنوع واحد من النشاط . فهى قائمة على دعامة واحدة وتشبع نزعة واحدة من نزعات الإنسان : فالصيد والقتال كلاهما ينطوى على الإغارة والعدوان ؛ وكلاهما يرمى إلى التغلب على العدو أو القنيص وأسره أو إهلاكه ؛ أما الفروسية فلم تكن غاية فى ذاتها وإنما كانت مجرد وسيلة لهذين الأمرين .

وكانت هذه الأمور الثلاثة عند سكان السهول من الهنود الحمر من أنبل الأعمال الإنسانية جميعاً وأجلها منزلة وأعظمها

خطراً . ولذلك اختص بها الرجال دون النساء ؛ بل كان نشاط الرجال مقصوراً عليها وحدها . أما ما دون ذلك من الأعمال فى داخل المنزل وخارجه فقد كان يقع على كاهل الجنس الضعيف .

وقد نبغ هنود السهول فى شئون الصيد والفروسية والقتال أيما نبوغ ، وجوّدوا أعمالها كل التجويد ، وبلغوا فى مضمارها منزلة منقطعة النظير ، حتى تميزت بها شخصيتهم ، وكان لها أكبر شأن فى تاريخهم من قبل الاستعمار الأوربى ومن بعده ؛ وكانوا يعالجونها بمناهج وطرق ممتعة بارعة ويأتون فيها بأعمال غريبة خارقة للعادة حار الباحثون فى تفسير كثير منها حتى لقد ظن بعضهم أنها من ضروب السحر .

فالمسائل التى سنعالجها فى الجزء الباقى من كتابنا تجمعها إذن عدة صفات مشتركة ، وتربطها عدة روابط وثيقة ، ويأخذ بعضها بحُجز بعَض .

وسنعقد باباً للصيد وآخر للقتال أما الفروسية فسترد موضوعاتها فى خلال هذين البابين ؛ وذلك لأن بعض مظاهرها يتصل بالصيد وخاصة صيد الحصان الوحشى

واستئناسه واستخدامه ، وبعض مظاهرها يتصل بالقتال وطرائقه ؛ وهى فوق هذا كله وسيلة لكلتا الناحيتين . وموضوع هذا شأنه لا يلائمه باب مستقل ؛ ولذلك عالجنا مسائلها فى ثنايا البابين ، فعرضنا لما يتعلق منها بالصيد فى الباب الثانى ، ولما يتعلق منها بالقتال فى الباب الثالث .





[اللوحة رقم ٩]

أحد سكان القرى فى المنطقة الشمالية
من بلاد المكسيك



[اللوحة رقم ١٠]

طفل من عشائر « الأباش »

الباب الثانى

الصيد عند الهنود الحمر

١

عناصر الصيد عند الهنود الحمر

يقوم الصيد على دعائم ثلاث : إحداها الآلات التى يستعين بها الإنسان ؛ وثانيتها الحيوانات التى يريد صيدها ؛ وثالثتها الجهود التى يبذلها والخطط التى تسير عليها أعماله .

أو بتعبير آخر مألوف لعلماء الاقتصاد السياسى : يعتمد الصيد ، كسائر مظاهر الإنتاج الأخرى ، على رأس المال ممثلا فى الآلات ؛ وعلى الطبيعة ممثلة فى الحيوان ؛ وعلى العمل ممثلا فى الجهود التى يبذلها الإنسان والمناهج والخطط التى تنظم هذه الجهود .

* * *

١ ــ أما آلات الصيد ، وهى رءوس الأموال فى موضوعنا ،

فقد كانت عند الهنود الحمر بدائية ساذجة بعيدة كل البعد عن الكمال . وكانت تتخذ من الأحجار والنحاس (فلم يعرف الحديد لدى سكان أمريكا قبل أن يكشفها كولومب) ومن بعض أجزاء الجاموس الوحشى Le Bison وخاصة عظامه وجلده وعروقه وأوتاره وأمعاءه . غير أنها مع ذلك كانت متعددة الأنواع ، مختلفة الاستخدام . فكان منها الآلات الكاسرة الدامغة التى يتمثل معظمها فى أحجار غير مثقفة ولا مشحوذة مثبتة فى مقابض . فيمسك الصائد بمقابضها ويهوى بها على رأس الحيوان أو على جزء من أجزاء جسمه . وكان منها الأسلحة القاطعة المشحوذة الشفرات كالسكاكين والخناجر . وكان منها الأسلحة النافذة المارقة ، وهى المدببة الأطراف التى تنفذ فى جسم الحيوان وتخترقه وتمرق منه أحياناً . وكان بعضها يستخدم باليد مباشرة كالحراب وما إليها ، وبعضها يستخدم قذيفة من قوس كالسهام . وهذا النوع الأخير بمختلف مظاهره ، وخاصة السهام ، كان أهم آلات الصيد عند الهنود الحمر وأكثرها استخداماً . وكانت السهام نفسها على أنواع كثيرة : فمنها

ما كان يستخدم فى صيد الطيور ؛ ومنها ما كان يستخدم فى صيد الحيوان . والمستخدم منها فى صيد الحيوان كان مدبب الريش[1] ، وكان من الممكن فصله بسهولة من جسم الحيوان المصاب واستخدامه فى صيد حيوان آخر . وأما المستخدم منها فى صيد الطيور فلم يكن مدبب الريش ، ولم يكن ينفذ فى رميته ؛ وإنما كان يصدمها صدمة عنيفة تسقطها . وقد حمل الهنود الحمر على ذلك ، فيما يظهر ، شدة حرصهم على أن يبقى ريش الطيور سليما ، لشدة حاجتهم إليه وكثرة استخدامهم له فى ملابسهم وزينتهم وغطاء رءوسهم . وكان من آلات الصيد لديهم كذلك الآلات المغررة القابضة كالفخاخ والأشراك والحبائل والشباك والشصوص. وكان منها الآلات المغررة المحاكية ، كجلد الوعل أو الذئب الذى كان يلبسه الهندى ويتقدم به نحو القطيع محاكياً مشيته فيتمكن بذلك من الاقتراب من بعض أفراده وصيدها . وكان منها الآلات الجالدة كالسياط ونحوها . وكان منها آلات التكتيف والتقييد والشد والإيثاق والغل والخنق كالحبال

---

(١) الريش هو الجزء الأخير من السهم الذى ينفذ فى الرمية .

والأغلال . ومن أشهر هذه الآلات عندهم الحبالة Lasso التى كانت تستخدم فى صيد كثير من الحيوانات وخاصة الحصان الوحشى ، وكانت عبارة عن حبل غليظ ينتهى بطوق معدنى أو بأنشوطة يمر فيها الطرف الآخر للحبل ، فيتكون فى آخره طوق يتسع أو يضيق حسب الحاجة . وكان الهندى يمسك بطرفها المرسل فى يده ويقذف طرفها الآخر المعقود نحو الحصان فى رمية سريعة ماهرة ؛ فإذا طوق الحبالة حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوق يضيق شيئاً فشيئاً حتى يكاد يعصر حلقه عصراً. (انظر بعض آلات الصيد فى اللوحتين رقمى ١١ و ١٢ صفحتى ٤٥ و ٤٦)

هذا ، ويلحق بآلات الصيد ما كان يلجأ إليه الهنود الحمر أحياناً من الاستعانة بالكلاب والخيول وبعض الحيوانات المستأنسة الأخرى فى عمليات الصيد . غير أنهم ما كانوا يعنون بتدريب أية طائفة من هذه الحيوانات تدريباً خاصاً على أعمال الصيد ، ولم توجد لديهم أصناف خاصة من الكلاب مدربة على هذه الأعمال ؛ وإنما كانت استعانتهم بهذه الحيوانات فى أعمال الصيد تقوم



[اللوحة رقم ١١]

بعض آلات الصيد والقتال عند الهنود الحمر



[اللوحة رقم ١٢]

تمثل الصورة العليا صائداً فوق حصان مستأنس وقد اصطاد حصاناً وحشياً بالحبالة ، والصورة السفلى تمثل الحبالة .

فى الغالب على الارتجال ، وتختلف طرقها ونتائجها باختلاف الظروف ومبلغ مواتاتها والذكاء الفطرى للحيوان المستخدم نفسه .

ويلحق بآلات الصيد كذلك ما كانوا يلجأون إليه أحياناً من استخدام النار والدخان والأضواء للتأثير فى الحيوان ووضع السموم فى اللحوم والأعشاب على ما سيأتى بيانه فى آخر الفقرة التالية .

• • •

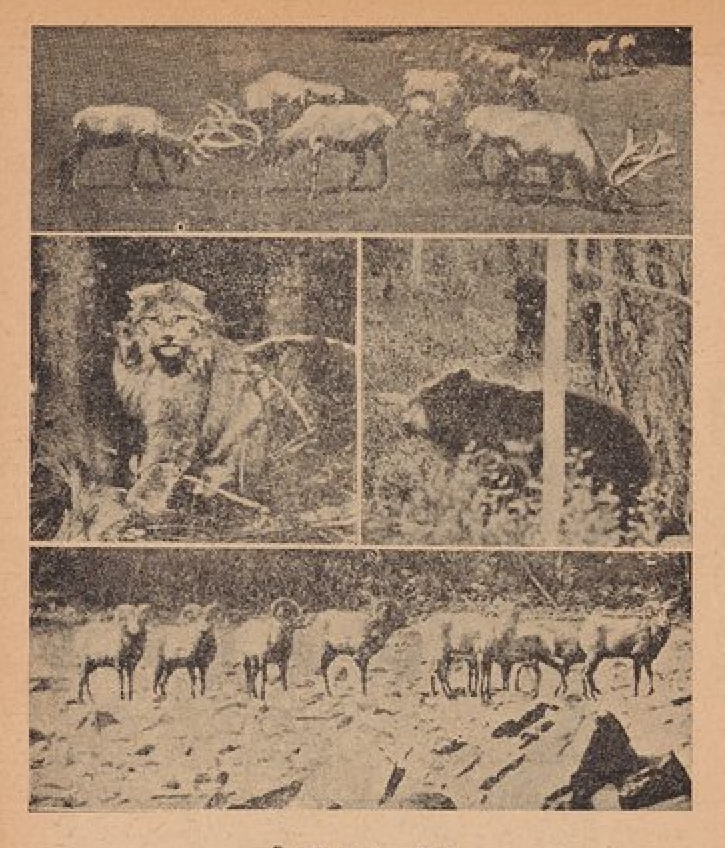
وفى بعض عمليات الصيد كان الهنود الحمر يستغنون عن جميع الآلات وملحقاتها ، ولا يستخدمون إلا أيديهم . وكان يحدث هذا فى صيدهم لبعض الحيوانات المائية الصغيرة والسلاحف ، وفى إغارتهم ليلا على بعض الحيوانات فى أوكارها وبعض الطيور فى أعشاشها ، وفى الحالات التى كانوا ينتفعون فيها بالحفر والمآزق وما إليها من الأمور التى سنتكلم عليها فى آخر الفقرة التالية بمناسبة الحديث عن مهارتهم فى الصيد .

• • •

ومن هذا كله يتبين أن العنصر الأول من عناصر الصيد ، وهو الآلات أو رأس المال ، كان عند الهنود الحمر بدائياً ساذجاً بعيداً كل البعد عن الكمال . غير أن هذا النقص كان يعوضه كمال العنصرين الآخرين ، وهما الحيوانات ومناهج الصيد .

• • •

٢ ـ فالحيوانات نفسها كانت فى العهد السابق للاستعمار الأوربى غزيرة كل الغزارة فى الغابات والأحراش والمراعى والسهول والأشجار والهواء والمياه . وكان الصيد عند الهنود الحمر يجرى على أصناف كثيرة من هذه الحيوانات من أهمها الوعول والغزلان التى كان يعيش منها فى سهول أمريكا الشمالية عدة أنواع امتاز منها فى نظر الهنود الحمر ثلاث فصائل يسميها الفرنجة الوابيتى والإلان والكاريبو Wapiti, Eln, Caribou والدببة التى كانت تصاد على الأخص لفرائها ومخالبها وأسنانها ، وكلاب البحر Loutres ، والسلاحف ، والأسماك ، والنسور التى كانت تصاد على الأخص لريشها ، والحصان الوحشى ، والجاموس الوحشى



[اللوحة رقم ١٣]
بعض حيوانات الصيد
فى الصف الأعلى وعول الوابيتى
وفى الصف الثانى على اليمين الدب الأسود وعلى اليسار الفهد الأمريكى
وفى الصف الثالث صنف من الأغنام الوحشية **Mouflons**



[اللوحة رقم ١٤]

قطيع من الجاموس الوحشي Bisons

(انظر فى هذه الحيوانات اللوحتين رقمى ١٣، ١٤ المواجهتين لهذه الصفحة والصفحة السابقة) .

هذا ، وأهم عمليات الصيد كانت تتجه إلى هذين الصنفين الأخيرين ، وخاصة الجاموس الوحشى الذى كان أهم الحيوانات جميعاً لدى الهنود الحمر ، وأغزرها فى هذه القارة .

* * *

٣ — وأما العنصر الثالث ، وهو مناهج الصيد ، فقد بلغ الهنودالحمر فى شئونه منزلة لم يكد يصل إلى مثلها شعب آخر .

وسنفرد لهذه الناحية الهامة من نواحى الصيد عند الهنود الحمر الفقرتين التاليتين .

٢

مهارة الهنود الحمر فى أعمال الصيد

حذق الهنود الحمر أعمال الصيد أيما حذق ، وجوّدوا مناهجه كل التجويد ، ومهروا فى شئونه مهارة منقطعة

النظير . ويرجع معظم الفضل فى مهارتهم هذه إلى عاملين اثنين :

أحدهما — تفرغ الرجال لأعمال الصيد والقتال ، وتركهم جميع الأعمال الأخرى للنساء . وذلك أن أكبر قسط من عبء الأعمال فى داخل المنزل وخارجه كان يقع عند هذه العشائر على كاهل الجنس الضعيف . بل إن المرأة لديهم كانت وحدها هى العنصر العامل الكاسب فى الأسرة ؛ فكانت تقوم بجانب تربية الأولاد والشئون النسوية الخاصة بجميع ما تتطلبه حياة أسرتها من عمل وتقتضى بذله من مجهود . ولم يكن يستثنى من ذلك إلا نوعان متشابهان من الأعمال اختص بهما الرجال ، وكانا يعدان فى نظر هذه العشائر أنبل الأعمال جميعاً وأعظمها منزلة ، وهما الصيد والقتال .

ولما كان التخصص فى عمل ما والتفرغ له يؤديان إلى تجويده ، لم يكن غريباً — وقد تفرغ رجال الهنود الحمر لأعمال الصيد وتخصصوا فى شئونه — أن يبرزوا فى مضماره ويصلوا فى مناهجه إلى شأو كبير من المهارة والحذق .

وثانيهما — أن حياتهم كانت متوقفة على الصيد ونتائجه . فالحاجة كانت ماسة إلى تنقيح وسائله . ولا يخفى أن الحاجة تفتق الحيلة ، وتشحذ القريحة ، وتذلل طرق النبوغ .

• • •

وكان الهندى يجمع فى أعمال الصيد بين الجرأة والمكر أو بين الشجاعة والحيلة .

فأما الجرأة والشجاعة فكانا يصلان لديه أحياناً إلى حد المخاطرة بحياته حيث لا يكون من ذلك بد ، وحيث تعوزه وسائل الحيلة ، وتكون قيمة القنيص مغرية ترتخص فى سبيلها النفوس . فصيده لبعض أنواع الدببة مثلا ، وخاصة الدب السنجابى « L'Ours gris » — الذى كان لديهم من أنفس الحيوانات جميعاً ، وكان يتخذ من فروه وأسنانه ومخالبه أرق أدوات الزينة وأغلاها قيمة عند هذه العشائر — كان يتمثل فى صراع مباشر بين مخلوق ضئيل ووحش جبار . فكان الهندى يندفع عارياً نحو الدب — وكان الهنود الحمر يباشرون فى الغالب أعمال الصيد وهم عراة حتى لا تعوق الملابس حركتهم — ويتحرش به ويثيره ، ولا يزال به حتى

يبلغ لديه الغضب والتأهب للانقضاض أقصى غايتهما ، فينتصب الحيوان ويبسط كلتا يديه للوثوب على الإنسان والبطش به . وحينئذ يتقدم الهندى رابط الجأش ، ويهوى بخنجره إلى قلب الدب ، ماراً بين ذراعيه المنفرجتين ، فيرديه مضرجا بدمه إن أصاب مقتله ، أو يلقى هو حتفه بين أنيابه ومخالبه إن طاشت طعنته .

وفى صيد الجاموس الوحشى كان الهندى يقدم أحياناً على أعمال لا تقل جرأة ومخاطرة عما كان يفعله فى صيد الدب السنجابى . فمن ذلك أنه كان يتابع قنيصه حتى يقرب منه ، فيقفز من ظهر جواده ، ويستقر على ظهر الحيوان نفسه ، ويغمد خنجره بين كتفيه .

• • •

وأما الحيلة والمكر فكانا يقومان لدى الهندى على أمرين : أحدهما محاكاة سباع الحيوانات فى المناهج التى تسلكها للحصول على قنيصها ؛ وثانيهما الإفادة من غرائز الحيوانات التى يحاول صيدها والانتفاع بما تسير عليه فى حياتها من أساليب .

فكان يقص آثار الحيوانات التى يريد صيدها ، ويتعقب علامات أقدامها فى الرمل والأرض كما تفعل الذئاب. وكان يختفى ساعات طويلة بدون حراك مترقباً مرور الصيد للانقضاض عليه كما تفعل الفهود والأنمار . وكان يغوص فى الماء متعقباً الأسماك ومتسرباً إلى مسابحها كما تفعل كلاب البحـــر Loutres . وكان يحـــاكى أصوات الدجاج والديكة ويقلدها فى مشيتها حتى تأنس إليه وتقبل نحوه كما تفعل الثعالب . وقد لاحظ أن بعض أنواع الوعول إذا سمع صوت وعل آخر من فصيلته أو غيرها بحث عنه واندفع نحوه ، فاستغل هذه النزعة ليوفر على نفسه مشقة البحث عن الوعول وتعقبها فى مسارحها ؛ فكان يكتفى إذا خرج لصيدها أن يقف على ربوة ويصرخ محاكياً أصواتها ، فتخرج الوعول من مختلف الفجاج وتركض شطر الصوت ساعية إلى حتفها بظلفها ، فيتابع خواره وثغاءه حتى تصبح على مرمى قوسه ، فيعمل فيها سهامه ويصيب منها ما يشاء .

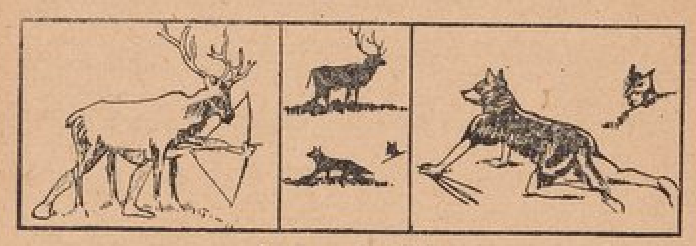
وكان يذهب أحياناً فى هذا التغرير وهذه المحاكاة إلى أبعد الحدود . فكان يحمل معه أحياناً جلداً كاملا للحيوان

الذى يريد صيده، ويتعقب آثاره حتى يلمح قطيعاً منه عن بعد، فيلبس هذا الجلد ويسير منحنياً كمن يمشى على أربع مخفياً قوسه وسهامه بين يديه ، ويتقدم نحو القطيع محاكياً مشيته، فيبدو لأفراده كأنه واحد منها ، فلا توجس خيفة ولا تريم ، ولا ينفك يدنو منها شيئاً فشيئاً حتى تصبح على مرمى قوسه ، فينتصب قائماً ، ويسدد إليها سهامه ، ولا تكاد تفيق من ذهولها وتتأهب للفرار حتى يكون قد أصاب منها ما شاء الله أن يصيب . (انظر اللوحة رقم ١٥ المواجهة لهذه الصفحة)

° ° °

ولاحظ الطرق التى تتبعها قطعان الحيوانات وأفرادها فى مشيها وعدوها وتقريبها وإرخائها وعنقها وخببها وإضباحها وجماحها ، والنظم التى تخضع لها فى مختلف شئون حياتها ، فاستغل هذه الطرق والنظم وأقام على أسسها مناهج مختلفات فى الصيد يوائم كل منهج منها نوعاً خاصاً من أنواع الحيوان .

وكان يوقد النار فى السهول والمراعى لتنفر إليها بعض الحيوانات ، ويستخدم الأنوار بالليل لتنجذب إليها بعض الطيور ، ويستعين بالأضواء الشديدة للتأثير على أعصاب



[اللوحة رقم ١٥]

الهندى وهو مختف تحت جلد بعض الحيوانات ومحاك

مشيته ليتمكن من الاقتراب من الحيوان وصيده

(انظر آخر ص ٥٥ وأول ٥٦)



الوعول وتنويمها ، ويثير سحباً من الدخان فى بعض عمليات الصيد . وكان يستخدم السموم فى اللحوم والأعشاب لقتل الحيوان الذى يتناولها أو لإضعافه وشل حركته للتمكن من صيده . وكان يحفر فى طريق الحيوانات وهاداً أو يستخدم مغارات طبيعية ويغطيها لتتردى فيها فى أثناء سيرها ، أو يحصرها فى مآزق لا تستطيع الإفلات منها كحصرها بين قمتين أو فى نهاية طريق مسدود لا منفذ فيه . . . وهلم جرا .

٣

الأمور الخارقة للعادة فى أعمال الصيد عند الهنود الحمر

ولم تكن مهارة الهنود الحمر مقصورة على هذه الأمور التى يستطاع الإتيان بمثلها ، بل لقد كانوا يأتون أحياناً أموراً خارقة للعادة .

فمن ذلك أن الهندى ، بعد أن كان يظفر بالحصان الوحشى ويأسره فى حبالته ، كان يتقدم إليه والحيوان فى

أشد حالات ثورته ، فيمسح بيده مسحاً خفيفاً على رأسه وعينيه ومنخريه ، فتحدث المعجزة ، وتنبعث السكينة فى نفسه ، فيستحيل بين غمضة عين وانتباهتها من وحش ثائر إلى حمل وديع .

وقد حار الباحثون فى تأويل هذه الأعمال وما إليها . حتى لقد رأى بعضهم أنها من ضروب السحر أو الإيحاء أو التنويم المغناطيسى وما إلى ذلك من الفنون المتصلة بما وراء الطبيعة أو بالنواحى الخفية من النفس .

فهم يقررون أن هذه الفنون قد بلغت لدى هؤلاء البدائيين مبلغاً كبيراً ، وأنهم كانوا يلجأون إليها فى كثير من شئون حياتهم ؛ وأن كبار سحرتهم كانت لديهم عن فنهم أسرار خطيرة ما كانوا يبوحون بها إلا لنفر قليل من صفوة تلاميذهم ومريديهم ؛ وأنهم كانوا يأتون أعمالا تحير عقول الأوربيين . فقوة تأثيرهم على كثير من الحيوانات — لأن هذه الظاهرة لم تكن فى الحقيقة مقصورة على الحصان ، بل كانت تتحقق كذلك فى حيوانات أخرى كثيرة — لا بد أن يكون مرجعها إلى السحر أو إلى تدخل قوى خارجة

عن الطبيعة ؛ إذ لا يمكن تأويلها عن طريق آخر .

وثمة شواهد أخرى كثيرة تدل على أن هؤلاء الهنود مزودون ببعض قوى واستعدادات لا نظير لها بين العاديين من المتحضرين . فقد ثبت أن كثيراً منهم قد بلغ مبلغاً كبيراً فى شئون التنويم المغناطيسى ، فيستطيع بسهولة أن ينوم نفسه أو ينوم غيره ، ويتحقق فى أثناء ذلك على يديه أو يدى وسيطه أمور خارقة للعادة عن طريق الإيحاء للغير أو الإيحاء الذاتى . وثبت كذلك أن كثيراً منهم مهيئون خير تهيئة لأن يكونوا وسطاء من الطراز الأول فى عمليات التنويم المغناطيسى .

ولعل هؤلاء البدائيين قد اكتسبوا هذه القوى السحرية والمغناطيسية من محنة التعميد Laitiation التى كان يجتازها كل فرد منهم عند ما يبلغ سناً معينة حتى يلتحق بالجمعية الدينية ويقف على خفاياها وأسرارها . فالطقوس المعقدة التى كان يخضع لها فى أثناء مرحلة التعميد ، وأنواع العذاب والآلام التى كان يتحتم عليه أن يذوقها مختاراً ، والانقطاع عن متع الحياة ، وملازمة الصيام حتى عن

الكلام أحياناً ، والعبادات المختلفة التى كان لزاماً عليه أداؤها فى مختلف ساعات الليل والنهار ، وحركات الرقص الدينى العنيف ، والأغانى المؤثرة التى كان يردد بها أوراده... كل أولئك كان من شأنه أن يجرده شيئاً فشيئاً من ماديته ، ويوقظ نواحيه الروحية ، ويكسبه قوى خاصة تتجاوب مع بعض الكائنات وظواهر الكون وتؤثر فيها عن طريق الإيحاء والمشاركة الوجدانية وما إليهما . والحيوانات من أشد الكائنات تأثراً بالإيحاء ومن أدقها أحساساً بمظاهر المشاركة الوجدانية . ألم تر إلى الكلب أو القط مثلا كيف ينجذب نحو بعض الغرباء من الأناسى والحيوان ، فيشعر نحوهم بالاطمئنان ؛ فى حين ينفر من بعضهم ، ويحس حيالهم الخوف والانزعاج ؛ بدون أن يكون فى مظهر هؤلاء ولا أولئك ما يدعو إلى المسلك الذى سلكه حيالهم . فلعل التفاعل بين القوى الروحية والمغناطيسية التى يكتسبها الهندى فى أثناء مرحلة التعميد ، وبين الشعور الخفى للحيوان ، وقابليته للتأثر بالإيحاء ، وشدة إحساسه بالمشاركة الوجدانية . . . لعل هذا التفاعل هو الذى يذلل للهندى وسائل التأثير فى الحيوان .

ويرى فريق آخر أن الهندى مزود بحواس مشبهة لحواس بعض الحيوانات ولا نظير لها عند المتحضرين من بنى الإنسان ؛ وأن هذه الحواس هى التى يستخدمها فى إدراك ما يجول بخاطر الحيوان وهى التى تتيح له وسائل التأثير عليه . وذلك أن الحيوانات مزودة بحواس غريبة لا نظير لها عند الإنسان المتحضر . ومن ذلك حاسة الاهتداء Sens de l'orientation التى توجد لدى طائفــة كبيرة من الحيوانات والطيور والحشرات كالحصان والحمار والكلب والحمام والنمل والنحل . فهذه الحيوانات لا تضل طريقها إلى منازلها مهما بعدت عنها أو أبعدت . ومن ذلك أيضاً الإحساس ببعض الظواهر الجوية والجيولوجية وتسجيلها قبل حدوثها أو فى أثناء حدوثها. فجميع الحيوانات تقريباً تحس الهزات الأرضية قبيل حدوثها .

غير أن هذه الفروق التى يتسع نطاقها بين الحيوان والإنسان المتحضر تتضاءل كل التضاءل أو تنعدم بينه وبين الإنسان البدائى . فمعظم هذه الغرائز والحواس التى يمتاز بها الحيوان عن الإنسان المتحضر ، لها أشباه ونظائر

عند البدائى . فحاسة الاهتداء وإدراك الظواهر الجوية والجيولوجية قبل حدوثها ، وقوة الشم . . . كل ذلك يتوافر لدى البدائى فى درجة من الحدة والقوة لا تكاد تختلف عن درجته لدى الحيوان . فقد يكون بعض الحواس التى لا نظير لها لدينا هى التى يستخدمها الهندى فى إدراك ما يجول بخاطر الحيوان ، وهى التى تتيح له وسائل التأثير عليه . أو قد يكون التجاوب بين بعض الحواس الخفية عند الهندى ونظيرها عند الحيوان هو الذى يؤلف بين نفسيهما ، ويحقق بينهما التفاهم والتعارف والوئام : فالنفوس جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف .

• • •

ولكن يظهر لنا أن هؤلاء وأولئك قد جمح بهم الخيال فى تفسير هذه الظواهر ، وأنه من الممكن رجع كثير منها إلى القوانين العامة التى تخضع لها حياة الحيوان ، كما سيظهر لنا فى دراستنا لاستئناس الحصان الوحشى عند الهنود الحمر (انظر صفحات ٧٥–٧٧) .
ومهما يكن من شىء بصدد الأساس الذى تقوم عليه هذه الظواهر فهى تدل دلالة واضحة على مبلغ ما وصلت

إليه مهارة الهنود الحمر فى علاجهم لأعمال الصيد وما وصل إليه إدراكهم لطبائع الحيوانات .

° ° °

هذا ، وكانت مهارة الهنود الحمر تبدو أوضح ما يكون فى صيد صنفين من الحيوان كانا أهم الحيوانات جميعاً لهذا الشعب ، وهما الحصان الوحشى والجاموس الوحشى . ولذلك سنفرد لهما البحوث الباقية من هذا الباب .

٤

صيد الحصان الوحشى عند الهنود الحمر

كانت عملية صيد الحصان الوحشى عملية فردية يعالجها شخص واحد ، ولا تقتضى تعاون جماعة كما كان الشأن فى بعض الحيوانات الأخرى كالجاموس الوحشى وما إليه . فكان الصائد[1] يخرج وحده ممتطياً صهوة جواد مستأنس ؛

(١) الطريقة التى سنذكرها كانت متبعة على الأخص عند عشائر الشيين Cheyennes فى جنوب ميسورى. وقد لاحظها العلامة كاتلان «Catlin» الذى يعد من أعمق الباحثين فى حياة الهنود الحمر وأدقهم ملاحظة لشئونهم.

ويتعمد أن يخرج عارياً حتى لا تعوّق الملابسُ حركته . وما كان يحمل معه من آلات الصيد وحاجات الزاد إلا حبالة تتدلى على ذراعه الأيسر (وكانت تضفر فى العادة من ليف أو جلد وتنتهى بطوق معدنى أو بأنشوطة يمر فيها الطرف الآخر للحبل ، فيتكون فى آخره طوق يلتف حول عنق القنيص ، ويتسع أو يضيق حسب الحاجة . — انظر اللوحة رقم ١٢ بصفحة ٤٦) ، .وسوطاً فى يده اليمنى ، وخرجاً صغيراً فوق كتفه يحفظ فيه كمية من جريش البن هى كل زاده فى سفره الطويل الذى قد يستغرق عدة أيام ؛ فكان يتبلغ بهذا البن ويستحلبه من حين لآخر كلما أحس وطأة الجوع .

يبحث الصائد عن آثار قطيع للخيل ، ويقص هذه الآثار حتى يقرب من القطيع ، فيركض فرسَه مندفعاً نحوه حتى يتوسطه أو يكاد ، فيضطرب شمل القطيع ويسوده الذعر وتشمله الفوضى . وفى أثناء ذلك يكون الهندى قد ألقى نظرات فاحصة خاطفة على مختلف أفراده ووقع اختياره على واحد منها يتوافر فيه ما يروقه من صفات .

وحينئذ يترجل الصائد ، ويترك فرسه المستأنس يسير

وراءه ، ويأخذ فى تعقب القطيع ، متجها دائماً شطر الحصان الذى اختاره ، فينفر القطيع منه فى صورة لا تنم على شدة الخوف ؛ إذ يحس أفراده أن سرعة من يتعقبها ليست شيئا مذكورا بجانب سرعتها ، وأنه لذلك لن يستطيع سبيلا إلى دركها ؛ فتقصد فى خببها ، وتقف من حين لآخر محدقة فى هذا المخلوق الضئيل البطىء الذى يتعقبها ، ويستهويها فى ركضها ووقوفها نشاط المرح واللعب وحب الاستطلاع والاستخفاف بالخصم والسخرية منه أكثر مما يستنفرها الخوف أو يثيرها الانزعاج .

ولكن الهندى لا يأبه بما توجهه إليه من سخرية أو ازدراء ، ويتابع سيره بخطوات منظمة على وتيرة واحدة ، متوسطة السرعة بين الهوينا والعدو . وكلما التقى بالقطيع اتجه شطر الحصان الذى وقع عليه اختياره ووجه إليه نظرات نافذة مريبة . فلا يلبث هذا الحصان ، بعد عدة التقاءات من هذا القبيل ، أن تلعب بنفسه المخاوف ، ويوقن أنه مقصود بالذات ، فيتملكه الذعر ، ويجفل ثم ينبتّ عن قطيعه ، ويعدو بأقصى سرعته ، ويتابع عدوه

شوطاً بعيداً ، ثم يقف ظاناً أنه قد بعد عن الخطر ؛ ولكنه لا يكاد يلتفت وراءه حتى يلمح الهندى خلفه يسير بخطواته الهادئة الوئيدة . فينفر الحصان ويزيد من سرعة عدوه ومن مسافة شوطه ، حتى يوقن أنه قد أصبح من المستحيل على الإنسان أن يدركه ؛ ويرجع بصره وراءه رجع المزهو بانتصاره ، فينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير ، إذ يلمح الهندى قاب قوسين منه أو أدنى .

هذا ، والهندى يمشى على الأرض هوناً ، لا يغير شيئاً فى خطوته الوئيدة ، ولا يزيد فى سرعته التى لا تذكر بجانب سرعة الحصان .

فأى سحر هذا الذى يستخدمه الهندى حتى يقطع بمشيته الهادئة من المسافات ما يقطعه الحصان بعدوه السريع مع اتحاد الزمن الذى يستغرقه المتسابقان ؟

لا يستخدم الهندى فى ذلك شيئاً من السحر ، ولكنه يستخدم العلم بطبائع الحيوان ، ويفيد من خبرته وملاحظته لأساليب الحصان فى عدوه . وذلك أن كثيراً من كبار الحيوانات الثديية كالخيل والوعول وما إليهما لا تسير فى

عدوها على خط مستقيم ، ولكنها ترسم أقواساً وأنصاف دوائر تتصل حافاتها بهذا الخط . فهى فى كل شوط من أشواطها تبدأ من نقطة فى هذا الخط وتنتهى بنقطة أخرى عليه ؛ ولكنها تسلك أبعد الطرق لقطع المسافة بين هاتين النقطتين ؛ فتقطعها فى خط منحن واسع ترسمه فى الغالب على يسار الخط المستقيم . فالهندى يعرف ذلك ، ويعرف أن حصانه سينتهى به المطاف فى كل شوط من أشواطه إلى الخط المستقيم الذى بدأ عدوه منه . فلا يكبد نفسه مشقة الجرى وراء الحصان ولا متابعته فى خطوطه المنحنيات ؛ وإنما يسير بخطواته المتزنة الهادئة فى الخط المستقيم ، موقناً أنه على هذا الخط سيجتمع الشتيتان ، وسيلتقى لا محالة بقنيصه . فالمسافة التى يقطعها الهندى فى سيره المستقيم للوصول إلى نقطة ما ليست شيئاً مذكوراً بجانب المسافة التى يقطعها الحصان فى سيره المنحرف للوصول إلى النقطة نفسها . والفرق بين المسافتين يعادل الفرق بين السرعتين . فلا يكاد الحصان يصل إلى هذه النقطة بعدوه السريع حتى يكون الهندى قد بلغها بخطواته الوئيدة .

ومن هنا يتبين السبب الذى من أجله يؤثر الهندى فى الغالب أن يعالج عمليات هذا الصيد راجلا ويترك فرسه المستأنس يسير وراءه ؛ لأنه يخشى إن عالجها راكباً أن يستسلم فرسه المستأنس لطبيعته ومناهجه الفطرية فى العدو ، ويندفع فى متابعة الحصان الوحشى فى سيره المنحرف ، فيخفق فى إدراكه ، لاتحاد المسافة التى يقطعها كلاهما مع تفوق الوحشى على المستأنس فى السرعة لحالة الذعر المستولية عليه من جهة وعدم وجود ثقل فوق ظهره من جهة أخرى .

وبعد عدة ساعات يدب الضعف والوهن إلى الحصان الوحشى ، ويتبين الهندى ذلك من كثرة وقفاته وتتابعها وقصر المدة التى يستغرقها كل شوط من أشواطه . وحينئذ يحث الهندى خطواته حثاً خفيفاً ، فى حين تشتد مظاهر الإعياء على الحصان شيئاً فشيئاً ، فتتناقص مسافة كل شوط من أشواطه ، حتى لا تتجاوز بضع عشرات من الأمتار ، وتطول مدة وقوفه للراحة بين كل وثبة وأخرى .

ويظل الهندى سائراً على وتيرته ، مع حث خفيف

لخطواته فى هذه المرحلة ، وتتناقص المسافة التى تفصله عن الحصان فى كل وقفة من وقفاته شيئاً فشيئاً حتى تصبح بضعة أمتار .

وحينئذ تتدافع الحوادث وتسرع نحو نهايتها ؛ فيطول توقف الحصان بين كل شوط وآخر ، ويرتفع قبعه ونحيطه[١] ، والهندى كالظل يلاحقه غير تارك له فرصة للراحة ، ولا وسيلة للاستجمام . فيجفل الحصان جفلته الأخيرة ، ولكن لا تطاوعه فى هذه المرة على العدو ساقاه المرهقتان ، فيقف فجأة حيث يكون الهندى على بضعة أمتار منه .

فيبطئ الهندى فى سيره ، ويتقدم نحو الحصان بخطوات متزنة جريئة ، ثم يتناول حبالته ، ويمسك بطرفها المرسل فى يده ، ويقذف طرفها المعقود نحو قنيصه فى رمية سريعة ماهرة لا تخفق ولا تطيش ، فإذا طوق الحبالة حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوق يضيق شيئاً

(١) القبع صوت يردده الفرس من منخريه إلى الحلق ويكون من نفاره من شىء يتقيه ، والنحيط صوت الفرس من الإعياء ، ويكون من الصدر إلى الحلق .

فشيئاً حتى ليكاد يعصر حلقه عصراً . (انظر اللوحة رقم ١٢ بصفحة ٤٦) .

ولعل الجنود الحمر قد اقتبسوا هذه الطريقة فى متابعة قنيصهم عن بعض الحيوانات المفترسة وخاصة الدب والذئب . فالدب مثلا يتعقب فريسته بخطوات متثاقلة ، ولكنها منظمة ، تسير على وتيرة واحدة ، لا تنقص سرعتها ولا تزيد ؛ بينما تقفز الفريسة مهتاجة بخطوات سريعة لا تذكر بجانبها خطوات الدب . ولكنها لا تلبث بعد بضع ساعات أن تهن قواها ، وتضعف حركتها . ويكون الدب فى أثناء ذلك قد قطع بخطواته الوئيدة المرحلة نفسها التى قطعتها فريسته بخطواتها المهتاجة السريعة . وذلك لأنه يسير على خط مستقيم ؛ بينما تسير هى فى أنصاف دوائر تتصل حافاتها بهذا الخط ؛ فلا يفترقان إلا ليلتقيا ، ثم يفترقان ويلتقيان مرة أخرى . . . وهكذا دواليك ، حتى يلتقيا فى وقت تكون فيه الفريسة قد نالها الوهن ، وأخذ منها الإعياء كل مأخذ ، لطول المسافات التى قطعتها فى هذه الأقواس ؛ فى حين يكون الدب لا يزال موفور القوى لقصر المسافة

التى قطعها ، ولسيره بخطوات وئيدة مريحة . وما هو إلا أن يثب عليها وثبة واحدة حتى تسلمها المنون إلى ذراعيه الجبارتين .

° ° °

ولا تكاد الحبالة تأخذ برقبة الحصان حتى تثور ثائرته ، فيرتفع نخيره ، وتصطك أسنانه ، وينتفخ منخراه ، وتبرز عيناه ، وتقذفا بالشرر ، ويضرب بقوائمه ضرب المذبوح فى مختلف الجهات .

ولكن الهندى لا يأبه بهذا كله ، ويتقدم إليه رابط الجأش ، ويمسح بيده على بعض أجزاء جسمه ، فيُذلل له الحيوان ، ويتم له إخضاعه ، على الوجه الذى بيناه فى الفقرة السابقة (انظر صفحات ٥٩ — ٦٥) .

وفى فجر اليوم التالى ينقلب الهندى إلى أهله فرحاً بما أفاء الله عليه من غنيمة ، ممتطياً صهوة جواده الجديد الذى تم استئناسه فى بضع ساعات ، ويقود وراءه جواده القديم .

٥
استئناس الحصان عند الهنود الحمر

ليس من بين الأعمال التى يأتيها الهندى فى صيده ما هو أدعى للدهشة ، وأعسر على الفهم ، وأدنى أن يكون من الأمور الخارقة للعادة من موقفه الأخير فى صيد الحيوان الوحشى ؛ إذ يتم له استئناسه بمجرد الاقتراب منه وإمرار يده على بعض أجزاء جسمه . فجميع الأعمال الأخرى ، على ما فيها من حذق ومهارة ، قائمة على ما أفاده الهنود الحمر من تجاربهم وخبرتهم بطبائع الحيوان ، أو على محاكاتهم لما يتخذه بعض السباع من مناهج فى الحصول على قنيصها . أما أن يتقدم الهندى نحو حيوان متوحش وهو فى عنفوان ثورته واشد حالات ذعره وهياجه ، فيلمسه بيده لمساً خفيفاً ، فإذا هو فى لمح البصر هادئ مطمئن مستأنس وديع ، فهذا ما تحار فى تأويله العقول .

ولذلك لم يسع بعض الباحثين ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق (انظر صفحات ٦٠ — ٦٤) ، إلا أن يرى فى ذلك ضرباً من ضروب السحر أو الإيحاء أو التنويم المغناطيسى وما

إلى ذلك ، أو نتيجة لأعمال حواس مزود بها الهندى وليس لها نظير عند أخيه المتحضر من بنى الإنسان .

ولكن يظهر لنا أن السبب فى هذه الظاهرة قد يكون أيسر من هذا كله . فقد يكون السبب فيها أن توحش الحصان كان طارئاً فى هذه القارة ، وأن قطعان الخيول التى كانت تهيم فى سهولها منحدرة فى الأصل من حيوانات كانت مستأنسة ومذللة للإنسان .

وفى الحق إن قصة هذا الحيوان بهذه القارة لتؤيد هذا التفسير كل التأييد . فمن المسلم به أن هذا الحيوان لم يكن معروفاً للسكان الأصليين فى العصر الذى دخل فيه الأوربيون هذه القارة . ويدل على ذلك أن قدماء المكتشفين والغزاة من الأوربيين، أمثال فرنسوا بيزار François Pizarre الذى أخضع عشائر الإنكا Incas وهم سكان بيرو الأصليون[1]، وفرناند كورتز Fernand Cortez الذى أخضع عشائر الأزتك Azteques [2]

---

(١) رحالة أسبانى (١٤٧٥ ـ ١٥٤١) وقد غزا شعوب الإنكا بمنطقة بيرو (انظر آخر ص ١٦) وأخضعها لإسبانيا .

(٢) ضابط أسبانى (١٤٨٥ ـ ١٥٤٧) وقد غزا شعوب الأزتك بالمكسيك (انظر أول ص ١٧) وأخضعها لإسبانيا .

وهم سكان المكسيك الأصليون، لم يعثروا على هذا الحيوان، بل لم يعثروا على أى أثر أو صورة له فى أية منطقة من المناطق الواسعة التى كان يسكنها قبائل الإنكا ببيرو وقبائل الأزتك بالمكسيك ، مع أن هذه القبائل كانت من أرقى سكان أمريكا الأصليين مدنية وأعرقها حضارة . بل إن أفراد هذه العشائر كان يتملكهم الفزع عند رؤيتهم الحصان مع الأوربيين، وكانت نفوسهم تطير شعاعاً عند سماعهم حمحمته وصهيله .

ومن المسلم به كذلك أنه قد أفلت من جيش كورتز Cortez فى أثناء تقهقر سريع فجائى اضطر إليه فى غزوة من غزواته ببلاد المكسيك نحو خمسين فرساً ، وأن هذه الأفراس قد هامت على وجوهها فى سهول هذه القارة ، وتألف من سلالاتها فى نحو نصف قرن هذا العدد الكبير من قطعان الخيول ، التى أصبحت مع تقادم عهدها بالاستئناس شبه متوحشة أو فى حالة بين التوحش والاستئناس ، وأن هذه الخيول هى التى كان يتعقبها الهنود الحمر بالصيد ، ويردون ما يصيدونه منها إلى حالة الاستئناس .

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعلل السهولة التى كان ينتقل بها الحصان من حالة الوحشية إلى حالة الاستئناس ، وندرك العوامل التاريخية الخفية التى كانت تذلل للهندى وسائل النجاح فى حركته الجريئة ، إذ كان — كما قلنا — يتقدم نحو الحصان الذى صاده وهو فى أشد حالات ثورته ، فيمسح عليه بيده مسحاً خفيفاً ، فإذا هو حمل مستأنس وديع . وذلك أننا بصدد حيوانات طرأ عليها التوحش ، لأنها منحدرة من أصول كانت مستأنسة ومذللة للإنسان . ولذلك كان ينتقل إليها عن طريق الوراثة النوعية « Atavisme » الميل إلى الاستئناس الذى كان عند آبائها الأولين . ولكن هذا الميل كان يظل كامناً لديها إلى أن تتاح له فرصة للظهور ، ويتحقق ما يثيره ، شأنه فى ذلك شأن جميع الصفات الوراثية الكامنة . ولعل ملاصقة الهندى للحيوان ومسحه على جسمه . . . لعل كل ذلك كان الفرصة المواتية لإثارة هذا الميل وانبعاثه من مكمنه ؛ فتعاود الحيوان حينئذ على حين غرة نزعته القديمة إلى معاشرة الإنسان والخضوع له ، فيسلم نفسه إليه .

٦

الفروسية عند الهنود الحمر

وهناك مشكلة أخرى خاصة بمهارة الهنود الحمر فى شئون الفروسية . وذلك أن السكان الأصليين لقارة أمريكا ، وخاصة الهنود الحمر بعد أن عرفوا الحصان ، قد ألفوه بسرعة وألفوا ركوبه واستخدامه ، وأصبحوا فى أمد وجيز جداً من أمهر شعوب الأرض قاطبة فى شئون الفروسية وركوب الخيل .

مع أنه من المقرر أن مهارة الأفراد فى شئون الفروسية وركوب الخيل . . . وما إلى ذلك ترجع فى الغالب إلى أمور وراثية . فإذا كان العرب والقوزاق مثلا قد بلغوا فى هذه الشئون مبلغاً كبيراً ، فإن الفضل فى هذا ليرجع إلى الاستعدادات الفطرية التى تنتقل إليهم بطريق الوراثة عن أجدادهم الذين تمرسوا أمداً طويلا فى أعمال الفروسية واضطرتهم مقتضيات حياتهم ونظمهم الحربية وعلاقاتهم

بغيرهم من الشعوب إلى تجويد فنونها . ولا أدل على ذلك من أن العشائر الإفريقية التى لم يعرف أجدادها الفروسية ولم ينتشر لديها الحصان إلا منذ أمد حديث لا تزال متخلفة عن غيرها فى هذا المضمار .

فكيف أتيح إذن للهنود الحمر ، الذين كانت الطبقات القريبة من آبائهم تجهل الحصان نفسه كل الجهل ، أن يكتسبوا هذه المهارة العجيبة فى ركوبه ويصبحوا بين عشية وضحاها مضرب الأمثال فى الفروسية ؛ مع أنه من المقرر كما قلنا أن هذا النوع من المهارة يرجع فى الأرجح إلى الوراثة ؟

ألا يدل ذلك على أن الهنود الحمر كانوا مزودين باستعداد فطرى لهذا النوع من المهارة ، وأن هذا الاستعداد قد انتقل إليهم بطريق الوراثة ، لا عن الطبقات القريبة من آبائهم التى ثبت أنها كانت تجهل الحصان ، بل عن طبقات بعيدة من آبائهم الأولين ؟ أو بعبارة أخرى : أليس فى هذا دليل على أن الحصان ، وإن كان مجهولا عند الطبقات القريبة من آبائهم ، لا بد أنه كان معروفاً

فى هذه القارة ومنتشراً ركوبه واستخدامه بين أهلها فى عصر سحيق فى القدم ، ثم انقرض لسبب ما ، ولكن بقى الميل إلى أعمال الفروسية والاستعداد للمهارة فيها متأصلين فى دم هذا الشعب ينتقلان من الخلف إلى السلف بطريق الوراثة فى صورة نزعتين كامنتين ، حتى أتيح لهما الظهور حينما ظهر الحصان مرة ثانية فى هذه القارة ، وتمكن أفراد هذا الشعب من استخدامه .

يذهب بعضهم إلى عدم قبول هذا الفرض ، ويقرر أنه من الممكن أن يمهر شعب ما فى فن ما فى أمد وجيز بدون أن يكون لديه فى هذا الفن أى استعداد وراثى ، وأنه من الممكن كذلك أن يختلف شعبان اختلافاً كبيراً فى مبلغ إجادتهما لفن ما مع اتحادهما فى التجرد من الاستعداد الوراثى لهذا الفن . ويستدل هذا الفريق على صحة مذهبه بمهارة الهنود الحمر أنفسهم فى استخدام الأسلحة النارية . فقد بلغوا فى هذا الفن فى أمد وجيز درجة منقطعة النظير استوقفت نظر الأوربيين وكانت موضع دهشتهم وإعجابهم معاً . على حين أن كثيراً من شعوب أواسط أفريقيا لم تصل

بعد إلى عشر معشار ما وصل إليه الهنود الحمر فى هذا المضمار ، بل لا تزال خاملة فيه كل الخمول . مع أن الهنود الحمر لا يمتازون عن هؤلاء فى شىء فيما يتعلق بالناحية الوراثية . فآباؤهم الأولون ، كآباء هؤلاء ، ما كانوا يعرفون شيئاً عن هذا النوع من السلاح الذى لم يظهر فى الإنسانية إلا منذ أمد حديث .

وبعضهم يقبل الفرض السابق ، وهو أن الآباء الأولين للهنود الحمر قد أتيح لهم فى اعصور قديمة ممارسة الفروسية والنبوغ فيها ، بل يرى أنه لا مناص من الأخذ به ، وأن التاريخ الطبيعى للحصان يؤيده كل التأييد . وذلك أن تاريخ هذا الحيوان قد كشف لنا عن حقائق خطيرة تقطع بصحة هذا الفرض . فقد أصبح من المقرر فى هذا التاريخ — وفى ضوء ما كشفه الباحثون من حفريات — أنه قد عاش على ظهر الأرض ، قبل أن تظهر الخيل المعروفة الآن ، فصيلة حيوانية تشبهها فى عموميات تركيبها وتختلف عنها فى كثير من التفاصيل : ككبر رأسها ، وانتصاب عرفها (وهو الشعر النابت فى محدب الرقبة ؛ وهذا الشعر غير

منتصب فى خيولنا الحالية ، بل مسترخ ومدلى فى خصائل) ، وأن هذه الفصيلة هى التى انشعب منها الحصان الحالى بعد أن اجتاز عدة تطورات ، وأن أمريكا كانت الموطن الأصلى لهذه الفصيلة القديمة ، ومنها انتشرت فى مختلف أنحاء المعمورة .

وذلك أن أمريكا كانت تتصل بآسيا عن طريق برزخ بهرنج (بوغاز بهرنج الآن) ؛ بل يظن أنها كانت تتصل بها من عدة نقط أخرى كذلك . وتدل الحفريات السابق ذكرها على أن هذه الفصيلة الحيوانية قد تسربت من هذه المنافذ إلى سيبريا أولا ، ثم تسربت من سيبريا إلى أوربا ، ومن أوربا انتشرت فى مختلف أنحاء الدنيا القديمة . وقد بقيت من هذه الفصيلة بعض رواسب فى صنف من الخيول المستأنسة بالنرويج وأيساندا . وكان الرأى السائد حتى أواخر القرن التاسع عشر أنه لا يوجد من رواسب هذه الفصيلة غير هذا الصنف . ولكن فى سنة ١٨٨١ عثر الرحالة برجوالسكى « Prjewalsky »[1] ، وهو يجوس مناطق

(١) نقولا برجوالسكى ضابط ورحالة روسى قام بعدة رحلات هامة واكتشافات قيمة فى آسيا الوسطى ، ولد سنة ١٨٣٩ وتوفى سنة ١٨٨٨ .

منغوليا ، على قطعان من الخيول الوحشية تشبه من جميع الوجوه هذه الفصيلة القديمة .

أما فى أمريكا فقد انقرضت هذه الفصيلة كل الانقراض بدون أن تترك أية خلفة حية ، مع أنها كانت موطنها الأصلى . فالخيول الوحشية التى كانت منتشرة فى سهول أمريكا بعد دخول الأوربيين ، والتى كان يتعقبها الهنود الحمر بالصيد ، لم تكن منحدرة من هذه الفصيلة مباشرة ، وإنما كانت تمثل الحصان فى آخر مرحلة من مراحل تطوره ، وتحمل أدلة كثيرة على انحدارها فى صورة مباشرة من الخيول الإسبانية الداجنة العربية الأصل . فلا بد أنها سلالة الخيول التى أفلتت من غزاة الإسبان وهامت على وجوهها فى هذه السهول فى فجر الاستعمار الأوربى .

فن هذه الحقائق يمكن أن نستخلص أن هذا الحيوان قد عاش فى موطنه الأصلى وهو أمريكا أمداً طويلا ؛ ثم انقرض من هذه القارة انقراضاً تاماً لأسباب لم تعرف بعد . وتم انقراضه منذ أمد سحيق فى القدم لا يعرف تاريخه على وجه اليقين ؛ ولكن يمكن الجزم أنه سابق

على ظهور الحضارة الأزتكية ، بدليل أننا لم نعثر حتى على صورة لهذا الحيوان فى أى أثر من آثار هذه الحضارة ، مع كثرة هذه الآثار وتنوعها وتمثيلها لمختلف المراحل التى اجتازتها عشائر الأزتك Aztèques واجتازتها حضارتهم حتى دخول الأوربيين بلاد المكسيك . ثم أتيح لهذا الحيوان أن يظهر فى هذه القارة مرة ثانية بعد الاستعمار الأوربى متفرعاً من الخيول التى جلبها معهم الأوربيون .

ففى أثناء المرحلة الطويلة التى قضاها هذا الحيوان فى هذه القارة قبل انقراضه منها ، لا بد أن يكون السكان الأصليون قد استأنسوه ، ومارسوا ركوبه ، وقطعوا فى فنون الفروسية شوطاً بعيداً . وقد بقيت هذه المهارة فى دمهم بعد انقراض الحيوان نفسه تنتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف فى صورة استعداد كامن . إلى أن أتيح لها الظهور حينما ظهر الحصان مرة ثانية فى هذه القارة ، وتمكن أفراد هذا الشعب من استخدامه . ومن ثم لم يكد يظهر هذا الحيوان فى سهول أمريكا بعد الاستعمار الأوربى ويعرفه الهنود الحمر حتى ألفوه بسرعة وألفوا ركوبه واستخدامه ،

وأصبحوا فى أمد وجيز من أمهر شعوب الأرض قاطبة فى شئون الفروسية وركوب الخيل .

وقد يكون عهد الهنود الحمر بهذا الحيوان قبل ظهوره مع المستعمرين الأوربيين غير سحيق فى القدم إلى الحد الذى وصفناه . وذلك أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن الهنود الحمر دخلاء فى هذه البلاد ، وأنهم قد نزحوا إليها من المناطق الشمالية ، وأن نزوحهم هذا قد حدث فى عصور غير بعيدة كل البعد . فمن المحتمل أن تكون البلاد التى نزحوا منها كان منتشراً فيها الحصان ، أو كان أهلها قريبى عهد بانقراضه . ولعل هذا هو السبب فى أن الهنود الحمر بالذات كان استعدادهم للفروسية أقوى من استعداد الشعوب الأمريكية الأخرى ، وأنهم قد بلغوا فى هذا المضمار شأواً لم يصل إلى مثله شعب ما من هذه الشعوب .

• • •

هذا ، وقد ظل الهنود الحمر يصيدون هذا الحيوان ويستأنسونه على النحو الذى وصفناه ، حتى كثر الأوربيون النازحون إلى هذه القارة ، وكثرت معهم الخيول المستأنسة ،

فلم يجد حينئذ كثير من الهنود حاجة لأن يجشموا أنفسهم مشقة تعقبه واستئناسه ، وآثروا السطو على حظائر الأوربيين ، ونهبه منها مستأنساً عتيداً . وكان هذا عاملا من عوامل النزاع الذى ظل ناشباً بينهم وبين الأوربيين أمداً غير قصير .

٧

الجاموس الوحشى عند الهنود الحمر

أهمية هذا الحيوان فى حياتهم وطرائق تعقبه

أطلق الأوربيون على هذا الحيوان اسم الثور الوحشى Bison ، ولكن شاع على ألسنتهم تسميته بالجاموس Buffalo . وقد نجد بعض وجوه الشبه بينه وبين الثور . ولكنه يختلف عن الجاموس اختلافاً كبيراً فى جميع مظاهر جسمه : فى حجمه وطوله ، وقرونه الصغيرة المقوسة ، ورأسه الصغير المفرطح ، وجبهته المتقلصة المنزوية ، وكتفه العريضة الحدباء ، وذيله الصغير ، وشعره الكثيف المتلبد

كلبد الأسد حول عنقه وكتفه وساقيه الأماميتين ؛ ولا يكاد يجمعه بالجاموس إلا أنه حيوان مجتر من ذوات الظلف (انظر اللوحة رقم ١٤ بصفحة ٥٠) .

وعلى هذا الحيوان كانت تتوقف حياة الهنود الحمر . فقد كان لديهم أهم مادة للغذاء والكساء والمسكن والأثاث والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة .

فمن لحمه كان يتألف أهم قسم من غذائهم الحيوانى . وكانوا يأكلونه طازجاً سليقاً وشواء وحنيذاً ، ويحفظونه قديداً ووشيقاً[١]. ومن جلده كانوا يتخذون بيوتهم (الخيام) (انظر اللوحة رقم ٦ بصفحة ٢٧) ويعملون الحقائب والأوعية والفرش والأردية والمعاطف والمناطق والأغطية والأحزمة والأحذية والخفاف والتروس وسروج الدواب والحبال وأشراك الصيد والسفن والقوارب وكنانات السهام وأغماد السيوف وهلم جرا. — ومن عظامه كانوا يتخذون معظم الآلات التى يستخدمونها فى أعمالهم ويصنعون المجارف

---

(١) حنذ الشاة شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ ، ومنه قوله تعالى : «وجاء بعجل حنيذ» . ولحم قديد مشرح طولا ومحفوظ، والوشيق اللحم يغلى إغلاءة ثم يقدد ويحمل فى الأسفار وهو أبقى قديد يكون ، والوشيقة مثله ، وفى الحديث أنه أتى بوشيقة يابسة من لحم صيد .

والأمشاط والمكاشط والصفارات والسكاكين والخناجر وريش السهام ونصالها وإبر الخياطة وأدوات الزينة وهياكل يستخدمونها فى طقوسهم الدينية . . . وما إلى ذلك . — ومن قرونه كانوا يصنعون الأكواب والكؤوس وأنواعاً مختلفة من الآنية والأبواق والزمارات ؛ وكانوا يضعون جمجمة الحيوان مع قرونه فوق رءوسهم للتمثل به فى أثناء أدائهم لبعض الشعائر الدينية أو علاجهم لعمليات السحر ؛ وكانوا يرمزون بالقرون إلى الحيوان نفسه . — ومن عروقه وأوتاره وأربطته وأمعائه كانوا يتخذون مختلف أنواع الحبال والسياط . — ومن أظلافه كانوا يتخذون الصمغ ومواد [illegible] والدهان . . . وما إلى ذلك . — ومن شعره كانوا يتخذون بعض مظاهر الزينة ومواد الحشو والتنجيد . — ومن مخه كانوا يستخرجون مواد لدبغ الجلود . — ومن ذيله كانوا يتخذون مذبات (منشات) وبعض أدوات الزينة . — ومن مثانته كانوا يتخذون أوعية ومواعين . — وحتى دهنه وروثه المجفف كانوا يستخدمونهما للوقود . وبالجملة ما كانوا يغادرون أى جزء من أجزاء هذا الحيوان ولا أى عنصر من عناصره إلا استخدموه فى

مرفق أو أكثر من مرافق حياتهم . فلا غرابة إذن أن اتخذوه رمزاً للألوهية والقوة ، وخصوه بمختلف أنواع التقديس .

• • •

وكانت قطعان هذا الحيوان تستأثر بأكبر حيز من هذه القارة ويكاد مثار نقعها يحجب ضوء الشمس ، حتى إن قطيعاً واحداً منها قد شغل فى أثناء هجرته مساحة عرضها سبعون ألف متر ، وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض فى سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات (انظر اللوحة رقم ١٤ بصفحة ٥٠) .

ولغزارة هذا الحيوان وعدم وجود مراع واسعة تكفيه مدة طويلة كان لا ينفك يهاجر فى طلب الكلأ من موطن لآخر . ولما كانت حياة الهنود الحمر متوقفة عليه كانوا يرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون فى حله وترحاله يشنون عليه غارات الصيد ، ويتزودون منه بما يسد حاجتهم للغذاء والكساء ومرافق الحياة .

وكان صيدهم لهذا الحيوان ينتهى دائماً بالإجهاز عليه ، فلم يحاولوا مطلقاً صيده حياً ولا استئناسه ، كما كانوا يفعلون

مع الحصان الوحشى . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى سهولة حصولهم عليه ، وغزارته فى حالته الطبيعية ، حتى إن الحاجة لا تدعوا إلى إنمائه بالاستئناس . هذا إلى أنه كان كامل التوحش غير مهيأ للدجون ، على عكس ما كان عليه الحصان الوحشى .

وكان أهم مواسم صيده قبيل الشتاء ، حيث يندفع لطلب الكلأ مهاجراً صوب الجنوب فى قطعان يصعد عدد بعضها إلى عدة ملايين ، ويهبط بعضها إلى بضعة آلاف ؛ ويخترق السهول فى طرائق معينة معروفة تسمى « مسالك الجاموس » .

فى هذا الفصل على الأخص كانت كل عشيرة من عشائر الهنود الحمر تبعث روادها يجوسون خلال هذه المسالك ، ثم يقفلون بأنباء دقيقة عن مستقر الأنعام وسيرها ، فيستخف العشيرة الفرح بهذه البشرى حتى ليكاد أفرادها يخرجون عن وقارهم ، ويسلمون أنفسهم لرقصات دينية عنيفة وغناء صاخب ، ثم يبتهلون إلى آلهتهم أن تجعل التوفيق رائدهم فى صيدهم وتهيئ لهم من أمرهم رشداً .

وبعد أن يصبغ الرجال جسومهم بألوان خاصة جرت بها التقاليد فى حفلات الصيد ويعدوا أسلحتهم وخيولهم ، يأخذون طريقهم نحو القطيع ، يتبعهم الأولاد والنساء .

وكانوا يحرصون على التخفيف عن خيولهم بقدر المستطاع فى المرحلة الأولى وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع حتى لا ينالها التعب فتعجز فى أثناء الصيد نفسه عن بذل ما ينبغى بذله من مجهود . ولذلك كانوا يؤثرون فى أثناء هذه المرحلة أن يجنبوها[1] ويسيروا رجالا بجوارها ، ولا يمتطوها إلا حيث يشرفون على القطيع ويشرعون فى عمليات الصيد . وهذا هو عكس ما كانوا يفعلون فى صيدهم للحصان الوحشى : فقد كانوا فى صيد الحصان الوحشى يقطعون المرحلة الأولى وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع على ظهور خيولهم ثم يعالجون عمليات الصيد نفسها رجالا .

وكانت دوافع ترجلهم فى الحالة الأولى تختلف كل الاختلاف عنها فى الحالة الأخرى . ففى صيد الجاموس الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على التخفيف عن

---

(١) جنب الفرس يجنبه من باب قتل إذا قاده إلى جنبه .

خيولهم فى مرحلة السفر الأولى حتى تباشر عمليات الصيد وقواها سليمة موفورة ؛ ولكن فى صيد الحصان الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك خوفهم من أن تفسد عليهم خيولهم المستأنسة خططهم فى الصيد ، وتنحرف بهم فى عدوها عن الطريق الجادّة التى ينبغى أن يسلكوها فى تعقب طرائدهم (انظر ص ٧٠) .

وكانوا يقضون أحياناً فى سفرهم مدة طويلة قبل أن يشرفوا على قطيع الجاموس وتتبين لهم أشراطه عن كثب فى سحب الغبار التى تتألف من مثار نقعه ، ودوى الرعد المنبعث من خواره وغمغمته وصعاقه ورجع أنفاسه فى أثناء سيره وتدافع أفراده بعضها إثر بعض .

٨

صيد الجاموس الوحشى عند الهنود الحمر

بعد أن يشرف أفراد العشيرة على القطيع ، يمتطى الرجال صهوة خيولهم ، وتنقسم القافلة عدة كتائب لكل كتيبة منها

عمل معلوم . ولعل الهنود الحمر قد أخذوا ذلك عن جماعة الذئاب إذ تلتقى بقطيع من الأنعام ، فتنقسم إلى شراذم تتحين كل شرذمة منها الفرصة المواتية للهجوم على الحيوانات المتخلفة أو المريضة أو الجريحة ، لأنها لا تستطيع أن تنفذ إلى كتلة القطيع نفسه ، ومن الإسراف فى مجهودها أن تتجمع فى بقعة واحدة .

وبعد أن يصدر الرئيس إشارة البدء فى العمل ، تصطف الكتائب كل كتيبة منها على مسافة من الأخرى ثم يندفع أفراد الكتيبة الأولى نحو قسم من القطيع ، فيجلبون عليه بخيلهم ، ويثيرونه بأصوات صاخبة مزعجة ، ويعمدون إلى الأنثى التى تقوده فيفصلونها هى وأتباعها عن القطيع ، ويستفزون القسم المنفصل ، ويعملون على تطويقه من بعض نواحيه ، ويدفعونه إلى حيث تقف أفراد الكتيبة الثانية ، وهذه تزيد فى إقصائه عن القطيع وفى تطويقه ... وهكذا حتى ينفصل عنه كل الانفصال ، ويصبح مطوقاً من جميع جهاته بالرجال . فيتراكم بعضه على بعض ، وتضطرب حركاته ، ويكثر شمه لمواطئ أقدامه ، ويعلو

خواره وصعاقه ، ويحفر الأرض بأظلافه حفراً شديداً ، فينعقد فى الجو سحب كثيفة من الغبار ، وينغمر الرجال والأنعام فى ظلمات بعضها فوق بعض . (انظر اللوحة رقم ١٦ المواجهة لهذه الصفحه) . وفى أثناء ذلك يكون كل فارس قد اختار لنفسه قنيصا ، فيركض فرسه نحوه حتى يحاذيه ، ويضعه على يساره ، ثم يسدد إليه بسهمه فيرديه جريحاً أو قتيلا .

وتنطلق هذه السهام من أيد حاذقة صنّاع ، فلا تخطئ الرميّة ، ولا تنحرف عن الهدف ، وتندفع بقوة منقطعة النظير ، حتى إن بعضها ليمرق من الحيوان مروقاً ، ويستقر فيما يصادفه بعد ذلك . وقد جرت العادة أن يضرب الحيوان بين كتفيه ، فيترنح بضع خطوات ثم يسقط مثخناً بجراحه أو جثة هامدة (انظر الصورة العليا فى اللوحة رقم ١٧ بصفحة ٩٦) .

وحينئذ يغادره الصائد بدون أن يحاول الإجهاز عليه إن كان لا يزال حياً حتى لا يضيع عليه الوقت ؛ ويتعقب قنصياً آخر ثم ثالثاً ورابعاً . . . وهكذا حتى ينتهى الصيد ،



[اللوحة رقم ١٦]

قطعة من الجلد طولها متران مرسوم عليها منظر لإثارة قطيع من الجاموس الوحشى وتعقب الصيادين من الأوربيين والهنود الحمر لبعض أفراده وصيدها (وهى من عمل الهنود الحمر أنفسهم)





[اللوحة رقم ١٧]

تمثل الصورة العليا صيد الجاموس الوحشى بالسهم
وتمثل السفلى صيده بالحربة

فيعود كل صائد إلى ما أصابه من هذه الحيوانات فى مختلف جولاته — ويعرفها بالسهام المنغمسة فى كل منها ، لأن كل سهم منها كان يحمل سمة صاحبه — فيجهز على مالا يزال حياً من بينها ، ويعد رءوسها ، ويزهو على أقرانه إن كان قد أصاب منها عدداً كبيراً .

وقد يستخدم الصائد أحياناً حربته أو خنجره . فإذا اختار الحربة جعل الحيوان على يساره وغرسها فى ظهره وهو على صهوة جواده (انظر الصورة السفلى فى اللوحة رقم ١٧ المواجهة لهذه الصفحة). وإذا اختار الخنجر تابع قنيصه حتى يقرب منه ، فيقفز من ظهر جواده ويستقر على ظهر الحيوان نفسه ، ويغمد خنجره بين كتفيه .

ولم تكن عمليات الصيد لتخلو من الخطر ؛ بل كانت تنتهى أحياناً بحوادث أليمة تزهق فيها بعض النفوس . فإذا انبتّ بعض أفراد القافلة مثلا عن زملائه ، وحاول إثارة قسم من هذه الحيوانات لفصلها عن قطيعها ، ولكنه لم يجد وراءه من يسلمها له ، ولم ينجح فى تحويلها عن اتجاهها ، وضاق وقته أو قصرت حيلته عن البعد عن طريقها ،

كان مصيره الموت البطىء هو وجواده تحت أقدام القطيع .

• • •

وكانت القافلة تعمل جهدها على تقصير زمن الصيد والاكتفاء بالضرورى منه ؛ كما كانت تحرص على حصر غنائمها فى حيز ضيق وعدم بعثرتها هنا وهناك . ولذلك كان رجالها يحيطون بالقسم المنفصل عن القطيع ، ويضغطونه فى أضيق دائرة ممكنة ، ويعوقون سيره ، ويسدون عليه المنافذ (انظر اللوحة رقم ١٦ بصفحة ٩٥) ؛ فإذا أفلت على الرغم من ذلك بعض الأنعام من النطاق المضروب ، تركوها وشأنها ، ولم يجشموا أنفسهم مشقة تعقبها ، حتى لا تتسع عليهم حلبة الصيد وتتبعثر الغنائم .

• • •

وكان عمل الرجال يقف عند هذا الحد . أما ما عدا ذلك من العمليات الشاقة التى كانت تجرى على لحوم هذه الحيوانات وجلودها لإعدادها لحاجات الغذاء والكساء والمسكن والأثاث والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة ، فكان يقع على كاهل الجنس الضعيف . وهكذا كانت الأعمال مقسمة بين الجنسين قسمة غريبة ضيزى .

٩

قصة الجاموس الوحشى

عند الهنود الحمر

على الرغم من أن الهنود الحمر كانوا يتعقبون هذا الحيوان ، فيرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون فى حله وترحاله يشنون عليه غارات الصيد التى وصفناها فى الفقرة السابقة ، وعلى الرغم من أن حياتهم كانت تتوقف فى مختلف مظاهرها على ما يفيء عليهم من هذا الصيد ... على الرغم من هذا كله ظل الحيوان على غزارته التى وصفناها فى الفقرة السابقة حتى دخل الأوربيون هذه القارة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى عوامل كثيرة . منها أن آلات الصيد التى كان يستخدمها الهنود الحمر وهى السهام والحراب والخناجر كانت آلات بدائية ساذجة ما كان لمثلها أن ينقص من كمية هذا الحيوان أو يعوق نموه . ومنها أن الهنود الحمر كانوا يقنعون فى صيده ، كما سبق توضيح ذلك ،

بالقدر الذى يسد حاجتهم المباشرة العاجلة غير باغين ولا عادين ولا قاصدين ربحاً ولا تجارة . ومنها قلة عدد الهنود الحمر أنفسهم ؛ فلم يكن عددهم عند كشف أمريكا ليزيد على ثلثمائة ألف ، مع أنهم كانوا يشغلون قارة كاملة من أكبر قارات العالم . ومنها أن وعيهم الجمعى الباطن قد جعلهم يحرصون على بقاء هذا الحيوان وغزارته ؛ مع أنهم كانوا ، فيما يسيطر عليه عقلهم الظاهر ، لا يكادون يدركون المستقبل البعيد ، ولا يحسون مقتضياته ، ولا يقيمون له وزناً .

ثم أخذت طرق صيده تزداد حدة وقسوة بعد أن دخل الأوربيون هذه القارة يحملون معهم أسلحتهم الماضية الفتاكة ونهمهم فى الربح وجشعهم فى جمع المال . ولكن الحيوان قاوم عوامل الفناء أمداً طويلا ، وظل على غزارته حتى منتصف القرن التاسع عشر بل حتى أوائل العقد الثامن من هذا القرن . ففى منتصف القرن التاسع عشر كان فى سهول أمريكا الشمالية زهاء مائة مليون رأس من هذا الجاموس . وفى عام ١٨٧١ روى أحد من جاسوا خلال

هذه القارة من ثقات الرحالة المؤرخين .أنه قد مر بقطيع من هذا الجاموس يبلغ طوله زهاء خمسة وخمسين ألف متر . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن وسائل النقل ظلت حتى منتصف القرن التاسع عشر بدائية ساذجة لا تستطيع أن تساير عمليات صيد عنيف . فمع أن الأوربيين كانوا نهمين فى الربح وجمع المال من أى طريق ، ومع أن جلود هذه الحيوانات كانت فى ذلك العهد كبيرة القيمة مغرية لهم كل الإغراء — فقد بلغ ثمن الجلد الواحد منها نحو ثلاثين دولاراً — ومع أن الحصول على هذه الحيوانات كان من السهولة بمكان ، مع هذا كله فإن وسائل النقل لم تكن مواتية لهم ، ولم يكن للجلود قيمة بدون نقلها إلى مواطن الحاجة إليها . ولذلك كان من العبث الإسراف فى عمليات الصيد ؛ فاقتصروا بصددها على القدر الذى تحتمله وسائل نقلهم ويحقق لهم الربح . وبفضل ذلك ظل الحيوان على غزارته أمداً طويلا بعد نزوحهم إلى هذه القارة .

ولكن تغير كل شىء بعد أن أنشئت السكك الحديدية واخترقت هذه السهول . فاستحالت بعد ذلك عمليات

الصيد إلى عمليات إبادة واستئصال ، وأخذت تحصد الحيوان حصداً ، وتتعقبه فى مختلف مواطن فراره . فلم يكد ينقضى على إنشاء السكك الحديدية بهذه القارة خمس وثلاثون سنة ، أى لم يكد ينتصف العقد التاسع من القرن التاسع عشر (سنة ١٨٨٥) حتى انقرض هذا الحيوان أو أوشك على الانقراض .

فسهولة النقل حينئذ ، وغزارة الحيوان ، وغلاء جلده ، وجودة آلات الصيد وشدة فتكها ، وجشع الأوربيين ونهمهم فى المال ، وغفلة المشرعين فى ذلك العهد عن وضع قوانين تكفل بقاء الأنواع النافعة من الحيوانات . . . كل ذلك قد جعل الأوربيين ، والهنود أنفسهم على آثارهم ، يندفعون إلى الصيد هذا الاندفاع الجنونى ، حتى جف النبع نفسه وغارت موارده .

وقد زاد الطين بلة أن الأوربيين لم تقتصر تجارتهم فى ذلك العهد على جلود هذه الحيوانات كما كان شأنهم من قبل ، بل اتجهوا كذلك إلى الاتجار ببعض القطع الكبيرة القيمة من لحومها وخاصة ألسنتها . فكانوا لذلك يعملون

على إبادة أكبر عدد ممكن من هذه الحيوانات حتى يستخلصوا منها أكبر كمية ممكنة من هذه القطع الثمينة . وقد زادهم هذا جنوناً فى الصيد على جنونهم ؛ وحدثت من جراء ذلك مآس تقشعر من هولها الأبدان . فمن ذلك أن بعض التجار قد كدسوا بالقرب من محطة كنساس «Kansas» نحو خمسين ألف رأس من الجاموس الوحشى ، واقتصروا على تقطيع ألسنتها وتصديرها ؛ وتركوا جثثها مبعثرة فى مساحة واسعة حتى تعفنت ونشرت الأوبئة والطواعين فى مختلف أنحاء القارة .

ولم يكن صيد الجاموس الوحشى فى ذلك العهد مادة للربح والتجارة فحسب ، بل اتخذه الأوربيون كذلك وسيلة للرياضة واللهو والترفيه وقتل الوقت والزهو والتفاخر بالحذق والمهارة والتظاهر بالتعفف عن الربح المادى . وقد جانبوا القصد فى خيلائهم هذه كل المجانبة ، حتى إن أوربياً يدعى توم نيكسون « Tom Nickson » كان مزهواً لأنه استطاع أن يقتل مائة وعشرين رأساً من هذه الحيوانات فى أربعين دقيقة لمجرد اللهو والرياضة . فجاء

هذا الاتجاه ضغثاً على إبّالة ، وأسرع بالحيوان نحو نهايته . فقد استحال الأمر إلى صيد لمجرد الصيد ، وإلى ألعاب إبادة لا ترمى إلى غاية أخرى غير الإبادة نفسها : وألعاب هذا شأنها لا يمكن أن يصمد أمامها نوع من كبار الحيوانات البرية مهما كانت درجة نموه .

° ° °

واليوم لا نكاد نعثر إلا على هياكل هذا الحيوان فى المتاحف أو بعض أفراد قليلة منه فى حدائق الحيوان . وإن كان هناك بضع مئات من أفراده تعيش طليقة فى منطقة يلوستون فى أمريكا الشمالية Park de Yellowstone

وبانقراض هذا الحيوان انقرض الهنود الحمر أنفسهم أو أوشكوا على الانقراض . وإننا لنتفقدهم اليوم فلا نعثر منهم إلا على فلول ضئيلة مبعثرة هنا وهناك ؛ يخبطون فى بعض المناطق المنعزلة عن العمران الحديث ؛ قد تقوض بانقراض حيوانهم العزيز على أيدى الأوربيين أهم دعائم حياتهم ، وانتزع البيض منهم أراضيهم ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وسلطوا عليهم عوامل الهلاك ، ودبروا

لإبادتهم خططاً مجرمة أثيمة، ولم يتحرجوا أن يلهوا بصيدهم كما كانوا يلهون بصيد الجاموس الوحشى ، فتجرعوا غصص الجوع والخوف ، وأحاط بهم الموت من كل مكان ، وأخذوا يسيرون بخطوات حثيثة نحو الفناء . وهكذا لا يدخل الأوربيون بلداً إلا أفسدوه وجعلوا أعزة أهله أذلة وكذلك يفعلون !

وقد اعترف بهذا الجرم عدد كبير من مؤرخى الأوربيين أنفسهم . ومن هؤلاء السيدة چاكسون « Mrs H. Jackson » التى أطلقت على هذا العهد فى كتابها الذى يعد أهم وثيقة دامغة لمواطنيها من الأوربيين : « عصر الخزى والعار »

un siècle de deshonneur

وهذا هو مشعل الحضارة الذى يدعى الأوربيون أنهم يحملونه معهم حيثما يحلون .

الباب الثالث

القتال عند الهنود الحمر

١

نزعة القتال وبواعثها عند الهنود الحمر

لم تكن عشائر الهنود الحمر سواء فى مبلغ ميلها إلى الحرب . فمنهم من كان يجنح للسلم . وينفر من القتال ، ويؤثر الدعة والهدوء . ومنهم من استحوذت عليه نزعة الحرب ، وسيطرت على نفوسهم ، فأصبحوا لا يسأمون الصراع ، ولا يملون المنايا ، ولا يجدون سعادتهم إلا فى ميادين القتال . وكان هذا الفريق الأخير ينتظم معظم قبائل السهول كقبائل الأباش والكومنش والسيو والشيين

Apaches, Commanches, Sioux, Cheyennes

وقد ساعد على تمكن هذه النزعة من نفوسهم عوامل اجتماعية كثيرة .

فمن ذلك أن مجتمعاتهم كانت تقوم على نظام القرابة العشيرية ، كما كانت تقوم مجتمعات العرب فى الجاهلية ؛ فكان أفراد العشيرة الواحدة يرتبط بعضهم ببعض برابطة قرابة قوية متحدة الدرجة . ولم تكن هذه الرابطة قائمة على صلات الدم كما هو الشأن فى الأمم الحديثة فى الوقت الحاضر ؛ وإنما كانت قائمة على أساس انتماء الأفراد لتوتم واحد Totem . فلم تكن درجة القرابة التى تربط الولد بأبويه أو بأحدهما لتزيد شيئاً على درجة القرابة التى تربطه بأى فرد آخر من أفراد عشيرته ؛ بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أحد أبويه أو عن كليهما إذا قضت النظم المتبعة بانتمائه إلى عشيره أخرى غير عشيرة أحدهما أو غير عشيرتيهما . وكانوا يؤلفون مجتمعاً مستقلا ، منطوياً على نفسه ، مكتفياً بجهود أفراده ، حريصاً على استقلاله وعزلته عن غيره ، معتزاً بآلهته وتقاليده وتاريخه ، محتقراً لمن عداه ، يعد كل غريب عن نطاقه عدواً له . ولا يخفى ما ينجم عن هذا النظام وعن نعرة العصبية الملازمة له من إثارة للإحن والضغائن ، وإيقاد لنار الحرب ، وبث لنزعة

القتال فى النفوس ، وتمكين لنظم الأخذ بالثأر والمطالبة بدم القريب ، ومبالغة فى تقديس هذه النظم وتطبيقها حتى تصل إلى أعنف أشكالها ، وأشدها وحشية ، وأدناها إلى الإبادة والتدمير .

ومن ذلك أيضاً أن نمط حياتهم كان أشبه شيء بنمط الحياة عند العرب فى الجاهلية : حياة بداوة ونجعة وتنقل فى طلب الكلأ والصيد . وحياة هذا شأنها تتيح فرصاً كثيرة لاحتكاك العشائر بعضها ببعض ، وتؤرث بينها نيران الأحقاد ، فيشتد تنازعها على البقاء ، وكفاحها فى سبيل العيش ، ويقوى ميل كل منها إلى الإغارة على غيره والاستيلاء على ما فى يده .

ومن ذلك أيضاً أن انتشار الفروسية فى شعب ما يساعد على تمكن نزعة القتال فى نفوس أفراده ويحبب إليهم الحروب . وذلك أن الفروسية نفسها ليست فى حقيقتها إلا تدريباً على شئون الحرب ، وأن مهارة الفارس لا تكاد تجد مجالا لظهورها إلا فى ميادين القتال . وقد رأينا مبلغ ما وصل إليه الهنود الحمر فى شغفهم بالفروسية ومهارتهم فى شئونها ؛

فلم يكن مناص إذن من أن يشربوا فى قلوبهم حب القتال ويمهروا فى شئونه .

٢

مشروعية الحرب وأنواعها عند الهنود الحمر

كانت الحرب فى نظر الهنود الحمر إجراء مشروعاً لا مأخذ عليه من عرف ولا دين ولا تقاليد ؛ بل إنها لم تكن فى نظرهم إلا ضرباً من ضروب الصيد . فقد كانوا يرون أنه إذا كان من حق كل فرد أن يغير على قنيص حيوانى ليسد به حاجة من حاجات غذائه أو كسائه أو مسكنه ، أو ليرضى بذلك ناحية من نواحى نشاطه الجسمى أو النفسى ، فإنه لا يمكن أن يحظر عليه أن يغير على إنسان مثله ليسلبه ما يحتاج إليه أو ليرضى بذلك نزوة من نزواته . فالاتحاد فى الغاية كان كافياً فى نظر هؤلاء البدائيين لتبرير مختلف الوسائل ؛ والحاجة وحدها كانت لديهم أساس المشروعية فى معظم الشئون .

بل إن الإغارة على الإنسان كانت تبدو لديهم أكثر جوازاً ومشروعية ، وأقرب إلى الشجاعة ، وأدنى إلى نبيل الأعمال من صيد الحيوان . فالقنيص الحيوانى غير متاح له الدفاع عن نفسه بأسلحة من نوع الأسلحة التى تنوشه . فالنجاح فى صيده لم يكن دائماً دليلا قاطعاً على شجاعة أو قوة بأس . على حين أن فى مقدور الإنسان فى القتال أن يدفع عن نفسه بالأسلحة نفسها التى توجه إليه . فإذا غلب على أمره على الرغم من ذلك كان هذا دليلا على أن خصيمه يفضله فى الكفاية والشجاعة وقوة البطش وسعة الحيلة وحسن استخدام السلاح .

هذا إلى أن انطواء نفوس العشائر على الإحن والأضغان بعضها حيال بعض ، وتوقع كل عشيرة أن يغار عليها من العشائر الأخرى . . . كل أولئك كان يزيد فى تبرير القتال ومشروعيته . وذلك أن كل عشيرة كانت تعلم أنها إذا لم تبدأ خصومها بالقتال وتغزهم فى عقر دارهم ، فإن خصومها هم الذين سيبدؤونها لا محالة بالقتال ويغزونها فى عقر دارها . وبذلك أصبحت الحرب ، مهما كانت هجومية ،

مجرد وسيلة لتعجيل الدفاع عن النفس ووقاية المجتمع مما عسى أن تتمخض عنه الحوادث من شرور . وأمر هذا شأنه لا جدال فى نظرهم فى مشروعيته وجوازه ؛ بل لقد كان خليقاً بأن يسمو إلى مصاف الواجبات .

غير أن نطاق الأعداء الذين يجوز لعشيرة ما أو يجب عليها قتالهم ، لم يكن مقصوراً على ما عداها من العشائر ؛ بل إن فروع العشيرة الواحدة كثيراً ما كانت تنشب بينها حروب أهلية لأوهى الأسباب وأشدها تفاهة . فعشائر المندان مثلا Les Mandans وهى إحدى فروع السيو Sioux ظلت هدفاً لغارات متوالية من بنى عمومتها أنفسهم وبعض أحلاف لهم من عشائر الأرباهو Arapaho ، وظلت سيوف بنى أبيها تنوشها ، حتى مُزقت شر ممزق . وحينئذ انقلب الحلفاء أنفسهم بعضهم على بعض ونشبت بينهم حروب مبيدة يشيب من هولها الولدان .

وظل هذا حال الهنود الحمر حتى دخل البيض بلادهم ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، فألفت نكبتهم المشتركة بين قلوبهم ، وتناسوا إلى حين ما كان بينهم من عداوة

واحد ، وتضافروا على قتال عدوهم المشترك ، وأخذوا يشنون عليه غارات عنيفة متوالية ، ويقضون مضاجعه بحروب العصابات . وقد شغل جهادهم هذا أمجد صفحة في تاريخهم ، وأشق مرحلة وأطولها في تاريخ الاستعمار الأوربي ، وكان موضوعاً لمئات من المؤلفات والقصص والروايات في القرون الثلاثة الأخيرة .

٣

أسباب الحرب عند الهنود الحمر

كانت الأسباب المباشرة للحرب عند هذه العشائر كثيرة مختلفة الأنواع : منها الجليل الخطير ؛ ولكن معظمها كان تافهاً حقيراً . فقد كانوا في الغالب يتلمسون أوهى الأسباب لإشعال نار الحرب ؛ حتى لقد كان من بواعثها لديهم أحياناً مجرد التقاء عشيرتين في طريق واحد أو مجرد تجاورهما في مضارب الخيام . فعلى الرغم من أن الهنود الحمر ما كانوا يرون ملكيتهم للمناطق التي يحلون في جانب

منها ، لأن حياة معظمهم كانت حياة نجعة ورحلة لا حياة استقرار ومقام ، وحياة كهذه لا توحى بنظام الملكية بوضع اليد . . . على الرغم من ذلك فإن مجرد التقاء عشيرتين فى طريق واحد أو نزولها فى مضربى خيام متجاورين كان كافياً لإزعاج إحداهما أو كلتيهما ، وإثارة كامن عداوتهما للغريب ، وانبعاث نعرة العصبية فى نفوسهما ، فتشتعل بينهما نار الفتنة ، وما هى إلا لحظات حتى تشتبكا فى حرب زبون .

وقد كانوا يقدمون أحياناً على الحرب بقصد السلب والنهب ، وخاصة الاستيلاء على الخيل التى كانت لديهم أنفس النعم جميعاً وأغلاها قيمة . وكانت العشيرة الموتورة لا تنسى ترتها وما سلبته من مال وحيوان ، وتعمل جاهدة على أن تثأر لنفسها متى حانت فرصة مواتية . وإذا كتب لها النصر هذه المرة فإنها لا تقنع باسترداد ما فقدته أو ما يساويه عدداً أو قيمة ، بل تحرص على أن تؤوب بأضعاف مضاعفة منه . فتتأجج نار الحقد فى أفئدة العشيرة الأولى ، وتتهيأ للانتقام لما أصابها فى الأموال والأنفس والشرف

والكرامة . . . وهكذا دواليك : تظل الحرب بينهما سجالا حتى تفنى العشيرتان ، أوتفرّ إحداهما ملتمسة لها فى الأرض منأى عن الأذى ،فيحول بينهما بعد الشقة ، أو يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وكان بعض العشائر يتخذ الحرب هواية وحرفة ويقدم على القتال لمجرد اللذة فى القتال ولما يفىء عليهم به من غنائم . فأفراد عشائر الأباش مثلا Apaches كانوا يستنكفون من مزاولة أية حرفة أو صناعة ، أو التوفر على أى عمل منتج ؛ فاتجه نشاطهم واتجهت ميولهم إلى الحرب وحدها ، واتخذوها هوايتهم ومهنتهم وشغلهم الشاغل ، ووجدوا فى علاج شئونها لذة لا تذكر بجانبها جميع لذات الحياة . فكانوا ينقضون على العشائر الأخرى انقضاض الصاعقة ، فيقتلون ويحرقون ويدمرون وينهبون ، ويؤوبون بدوّارات قتلاهم من رءوس الأناسى وبغنائمهم من النّعم والأموال (الدائرة والدوارة هى التى فى وسط الرأس التى ينتهى إليها فرق الرأس. وكانوا ينزعون من القتيل فروة دوارته بجلدها كما سيأتى بيان ذلك) .

وإلى هذا يرجع السبب فى كثرة تنقلاتهم فى مختلف أرجاء القارة كأنما كانوا موكلين بفضائها يذرعونه . وذلك أن الخراب والدمار كانا يسيران فى رحالهم ؛ فما كانوا ينزلون بلداً إلا أقفر من أهله ، ودرست معالمه ، وهلك حرثه ونسله ، وعفت آثار الحياة فيه ؛ فيجاوزونه إلى بلد آخر ولا يزالون به حتى يلاقى المصير نفسه الذى لاقاه البلد الأول . وكان يفلت منهم أحياناً بعض فلول من العشيرة المغلوبة ، فيخبط أفرادها فى الأرض ، ثم يتاح لهم التجمع حيث يظنون أنهم قد أصبحوا بمأمن من أعدائهم ، فيتنفسون الصعداء ، ويستردون نشاطهم ، ويعكفون على أعمالهم ، ويقيمون ما يتاح لهم إقامته من مساكن وأثاث . ولكنهم لا يكادون يتذوقون طعم الاستقرار ويعودون إلى سيرتهم الأولى حتى يدركهم الأباش مرة أخرى ، فيتناولوهم سلباً ونهباً وتقتيلا ، ويقوضوا ما أقاموه ، فيهيم الناجون منهم على وجوههم ويتفرقون شذر مذر ، وهكذا دواليك : لا تفر عشيرة من سيوفهم اليوم إلا لتلاقيها مرهفة غداً أو بعد غد ، ولا تكاد جماعة تخال أنها بمنتأى عن ليلهم حتى

تدهمها شهابه ، وترخى عليها سدوله ، وتدركها منه ظلمات بعضها فوق بعض .

وقد تجرع منهم هذه الكؤوس مترعة معظم عشائر الهنود الحمر وخاصة عشائر المياس والتولتك Mayas, Toltèques الذين أخذت بلادهم وحضاراتهم تنتقل من جراء ذلك من منطقة إلى أخرى ، حتى طوفت بمعظم أنحاء هذه القارة : فكانوا لا يكادون يستقرون فى بلد جديد ويفرغون من بناء منازلهم فيه حتى تتخطفهم من الأباش معاول الفناء ويأتيهم الموت من كل مكان ومن حيث لا يشعرون .

وقد انتهى المطاف بعشائر الأباش حوالى القرن السابع عشر الميلادى إلى بلاد المكسيك حيث كان الإسبانيون فى نعيم واسع وملك كبير ، وحيث وجد الأباش لغاراتهم مجالات واسعة لا تنتهى لها آماد ، ولأرزاقهم موارد فياضة لا ينضب لها معين . فألقوا هناك عصا ترحالهم واستقر بهم النوى ؛ وكانت رحى الحرب بينهم وبين الإسبان لا يخفت لها دوى ، ونيران غاراتهم الخاطفة لا يخمد لها سعير .

ولعل الذى ذاقه الإسبانيون من ويلات هذه العشائر وغاراتها هو الذى دعاهم إلى أن يطلقوا كلمة « الأباش » على أوشاب الناس وسفلتهم ومجرميهم . ولقد انتشرت هذه الكلمة بمدلولها هذا فى لغات الأمم الأوربية جميعاً وانتقلت منها إلى كثير من اللهجات الأخرى .

٤

مناهج القتال عند الهنود الحمر

لقد كان القتال فى نظر الهنود الحمر ضرباً من ضروب الصيد كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . ولذلك لم تكن مناهجه العادية ومناهج خداعه لتختلف إلا قليلا عن نظائرها فى الصيد . فكما كانوا يبحثون فى الصيد عن القطيع مهتدين بآثار أقدامه فى الأرض ، كانوا كذلك فى الحرب يعتمدون فى الغالب على اقتفاء الآثار فى البحث عن عدو مهاجر يقاتلونه . وكما كانوا فى المناهج العادية للصيد يهجمون على الحيوان سافرين ويشتبكون معه أحياناً فى صراع ينتصر

فيه أكثر الفريقين جرأة ومهارة ، كانوا كذلك فى المناهج العادية للقتال يغيرون على عدوهم بعد أن ينذروه بعلامات تشبه إعلان الحرب حتى يتأهب للقائهم ويعد لهم ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط الخيل . وكما كانوا فى مناهج الخداع فى الصيد يخفون أنفسهم عن الحيوان أو عن القطيع أو يظهرون أمامه بمظهر مصطنع لا يوجس خيفة منه حتى يتمكنوا من مهاجمته أو أخذه على غرة ، كانوا كذلك فى مناهج الخداع فى القتال يلبسون على العدو بإخفاء أنفسهم أو ظهورهم فى غير مظهرهم الطبيعى حتى يتمكنوا من مفاجأته ويحولوا بينه وبين التأهب للقتال .

ولما كانت حياة معظمهم حياة بداوة ونجعة وتنقل فى طلب الكلأ والصيد كانت معظم حروبهم تحدث بين عشائر متنقلة فى طريق رحلتها أو فى أثناء استقرارها الموقوت . فكانت العشيرة قبل أن تنفر للقتال ترسل بعض روادها للوقوف على اتجاهات العشائر الأخرى فى سيرها . وكان يهديهم إلى ذلك اقتفاء الآثار التى ترسمها فى الأرض أقدام القوافل المهاجرة . وقد بلغ قافتهم فى فنهم هذا مبلغاً كبيراً

من الألمعية والحذق ؛ حتى إنهم كانوا يعرفون بفضل هذه الآثار اسم العشيرة المهاجرة وعدد أفرادها ونوعهم ووجهتهم وتاريخ مرورهم من هذا السبيل وأقصر طريق للحاق بهم . . . وهلم جرا (انظر اللوحة رقم ١٨ بصفحة ١٢١).

وبعد أن يستقر الرأى على غزو عشيرة ما يعكف أفراد العشيرة المهاجمة ، قبل أن ينفروا للقتال ، على بعض طقوس واستعدادات تقتضيها تقاليدهم فى هذه المناسبات . فيدق الرؤساء طبول الحرب ، ويطلقون فى الهواء دخاناً خاصاً ، فيتجمع المقاتلون ، بعد أن يكون كل منهم قد أعد عدته ، فحمل أسلحته وذخائره ، ولبس ملابس القتال وقلنسوته المزينة بريش النسور ، وغطى وجهه بقناع الحرب (انظر اللوحة رقم ١٩ بصفحة ١٢٢) . وكان هذا القناع عند هنود الوديان والسهول يغطى جميع أجزاء الوجه ما عدا الجبهة والعينين ، ويدهن بصبغة حمراء قانية . وكان بعض عشائر الهنود الحمر يدهنون وجوههم نفسها بهذه الصبغة . وإلى هذا يرجع السبب فى وصفهم « بالحمر » ، مع أن لون بشرتهم الطبيعية لم يكن من الحمرة فى شىء . وكانوا يدهنون كذلك

الخيل التى سيستخدمونها فى الحرب بألوان معينة وينقشون على وجوهها وصفحاتها نقوشاً خاصة (انظر اللوحة رقم ١٩ بصفحة ١٢٢ واللوحة رقم ٢٣ بصفحة ١٤٠) .

ثم يأخذ كل منهم مكانه فى حلقة الرقص الحربى . وكان هذا الرقص على أنواع كثيرة تختلف باختلاف العشائر . (انظر اللوحة رقم ٢٠ بصفحة ١٢٥) . فعند عشائر السيو مثلا Les Sioux كان المحاربون يلتفون حول موقد ملتهب الجمر ، وينحنون نحوه ثم ينتصبون ، كما يفعل بعض رجال الطرق الصوفية فى أذكارهم فى العصر الحاضر ، مرددين فى أثناء ذلك هذه العبارة : « إن النار مجردة من الرحمة والشفقة ، وسنكون نحن مثلها حيال أعدائنا » . ثم يقبض رئيس العشيرة قبضة من التراب ويمسح بها خدود رجاله مبتهلا إلى الأصل الأول الذى انحدرت منه العشيرة — وهو الجاموس الوحشى — أن يجعل التوفيق رائدهم فى حربهم هذه . وفى تعفير وجوههم بالتراب تمثيل لحالة الجاموس الوحشى عند محاولته الهجوم على العدو ، إذ يحفر حينئذ الأرض بأظلافه وقرونه ويثير نقعها على وجهه ثم ينقض انقضاض الصاعقة على خصيمه.

[اللوحه رقم ١٨]
بعض الرواد وهم يبحثون عن العدو ويقصون آثاره



[اللوحه رقم ١٩]

أزياء الحرب والتأهب لها

فى الشمال أحد رؤساء «السيو» بزى الحرب وبإحدى يديه عصا الحرب وعلى ذراعه الآخر الترس ؛ وبجانبه محارب فارس من عشيرته يتدلى على جانبه قوسه وجعبة سهامه ، وقد ارتدى قميصاً من جلد الجاموس الوحشى .

وفى الناحية اليمنى زوجة الرئيس فى ملابس الحفلات الفاخرة ، وبجانبها أحد رجال السحر .

وبعد أن يفرغوا من هذه الطقوس يتناول كل محارب من مخلاته المدلاة على جنبه قطعة من الفحم ، ويخط بها على جسمه علاماته الخاصة به وفق ما تعارفت عليه عشيرته فى طرق التميز بين الأفراد .

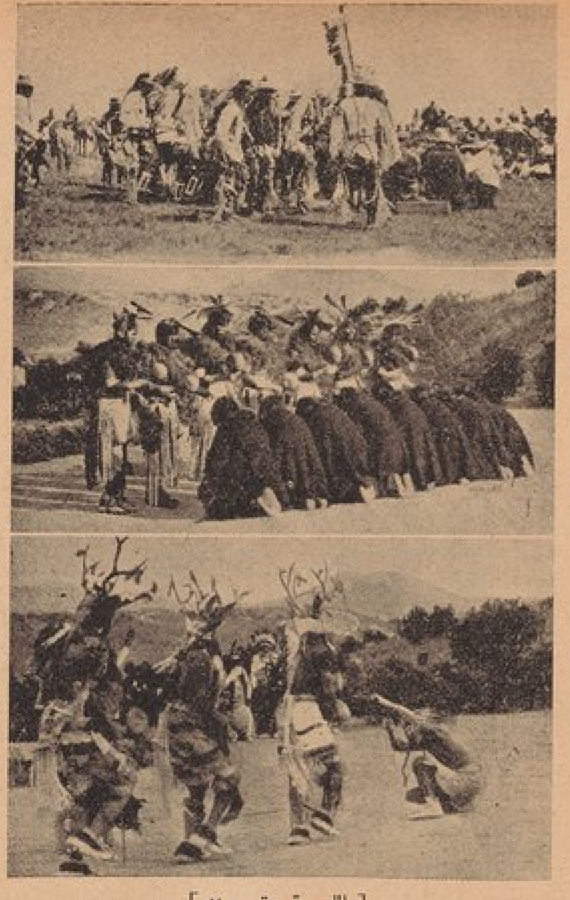
ثم يتجمعون مرة ثانية فى حلقة كبيرة يدورون حول محيطها فى حركات انجذاب عنيفة على نحو ما يحدث من بعض أرباب الطرق الصوفية فى حلقات الذكر ، مرتلين فى أثناء ذلك غناءهم الدينى المقدس بنغمه الخاص به .

ثم يصدر الرئيس أمره بالنفير ، فيتحرك الجيش شطر العشيرة التى استقر الرأى على مهاجمتها . وتعطى أوامر الرئيس وإشارات تنظيمه لسير الجيش بصفارة كانوا يتخذونها من عظام الديك الوحشى وخاصة عظام فخذه . فكان الرئيس يحمل هذه الصفارة مدلاة على صدره ، وينفخ فيها نفخات خاصة ترمز إلى أوامر وتنظيمات : فكان لها مثلا صوت خاص للهجوم وصوت آخر للانسحاب . . . وهلم جرا . وكانوا أحياناً يستخدمون كذلك لهذه الأغراض الأعلام وأغصان الأشجار : فنشر العلم الأحمر كان يعنى الأمر

بالشروع فى القتال ؛ ونشر العلم الأبيض أو التلويح بغصن أخضر كان يشير إلى طلب الهدنة أو وقف القتال . وكانوا ينظرون إلى طلب الهدنة أو وقف القتال بهذه الوسيلة نظرتهم إلى أمر مقدس لا يجوز رفضه أو الخروج عليه . وقد تركت هذه التقاليد البدائية رواسب فى جميع الأمم الإنسانية .

وكانوا فى أثناء اشتباكهم يصيحون صيحة الحرب ، وهى صيحة حادة مؤثرة تستغرق وقتاً طويلا وتصحب بدقات سريعة متتابعة تنبعث عن التصفيق بالأكف أو تحريك الأصابع على الشفتين . ولم يكن فى جرس الصيحة نفسها ما يزعج أو يخيف ؛ ولكن ارتباطها فى أذهان العشيرة المغزوة بأعمال الحرب واستدعاءها فى أذهان أفرادها لكل ما يصحبها من تقتيل وإبادة وتدمير . . . كل ذلك كان يذيب القلوب من هولها فَرَقاً ويطير بالنفوس شعاعاً .

وأما طرق الكر والهجوم والالتحام فلم يكن فيها ما يختلف كثيراً عن نظائره فى الأمم المتحضرة أيام أن كان الاعتماد فى الحروب على الخيول وفنون الفروسية . (انظر



[اللوحة رقم ٢٠]

بعض أنواع الرقص عند الهنود الحمر

العليا : رقصة الحرب عند عشائر «الأقدام السوداء»

والوسطى: رقصة الذرة عند عشائر «الهوبيس»

والسفلى : رقصة الوعول عند عشائر «الهوبيس»



[اللوحة رقم ٢١]

بعض مناهج الهجوم عند الهنود الحمر

المحاربون يقذفون أسهما نارية على منازل العدو قبل مهاجمته ، فيشعلون بها الحريق

طريقة من هذه الطرق فى اللوحة رقم ٢١ المواجهة لهذه الصفحة).

وأما فيما يتعلق بأسلحة الحرب فكانوا يستخدمون منها كل ما يصلح للقضاء على الخصم أو أسره إن لم يمكن قتله (انظر اللوحة رقم ١١ بصحة ٤٥) .

٥

مناهج الخداع فى القتال عند الهنود الحمر

كان بعض العشائر يستخدم فى القتال وسائل مراوغة وخداع ، لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة منه . وكانت هذه الوسائل تتمثل فى محاولة العشيرة المهاجمة أنْ تلبس على خصمها بإخفاء رجالها أو إظهارهم فى غير مظهرهم الآدمى كما كانوا يفعلون فى الصيد .

فمن ذلك مثلا أن عشائر الأباش كان يتجمع محاربوها أحياناً فى أطراف غابة قريبة من مساكن العشيرة التى يبغون قتالها وفى يد كل منهم فرع طويل يختفى وراءه ويتقدم به فى حركة وئيدة متقطعة يخيل للناظر إليها أنها حركة أغصان

ثابتة يداعبها الهواء .

ومن ذلك أيضاً ما كانت تلجأ إليه أحياناً عشائر الكومانش لمفاجأة أعدائهم بالهجوم . فقد كانوا يستخدمون خيولا غير مسرجة ويمد كل منهم جسمه بجانب صفحة فرسه ، مطوقاً رقبته بذراعيه ومعتمداً بإحدى قدميه على مؤخرة ظهره ، وفى منطقته قوسه وجعبة سهامه (انظر اللوحة رقم ٢٣ بصفحة ١٤٠) ، ثم يطلقون هذه الخيول شطر العشيرة التى يريدون غزوها ، فيخيل لمن يراها على هذه الصورة وليس على ظهورها رجال ولا سروج أنها قطيع من الخيول الوحشية ترتع وحدها فى السهول ؛ ويظلون كذلك حتى يشرفوا على منازل أعدائهم ، فيستديرون مرة واحدة من صفحات خيولهم إلى ظهورها ، كأنهم مردة من الجن قد انشقت عنهم الأرض ، أو أشباح من العالم العلوى قد قذفتهم السماء .

ومن ذلك أيضاً ما كان يلجأ إليه أحياناً عشائر الكومانش نفسها فى الغارات التى كانت تشنها على بعض العشائر لمجرد الاستيلاء على ما تملكه من خيول . فقد كانوا يعتمدون فى غزواتهم هذه على قوة المفاجأة وسعة الحيلة ، وينتفعون

فيها بما كان لديهم من خبرة منقطعة النظير عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها فى مختلف شئون حياتها . فكانوا ينتظرون حتى ينقضى شطر كبير من الليل ، ويكون أفراد العشيرة المقصودة فى سبات عميق ، فيمتطى كل محارب منهم صهوة جواده المختار ، وفى يده حربته وهراوته وجلد خشن مدبوغ من جلود الجاموس الوحشى . ويتم هذا كله فى حركة سريعة ماهرة ، فلا يسمع لهم ركز ولا تحس لهم نبأة . وما هى إلا فينة كلمح البصر أو هى أقرب حتى يكونوا فى القرية التى يبغون سلبها ؛ فيجوسون خلال ديارها ، وينتشرون فى مختلف دروبها ، وهم يصيحون صيحات مزعجة ، ويقعقعون بالشنان التى يحملونها ، ويحكّون أطرافها بعضها ببعض ، فينبعث من احتكاكها دوى كدوى الرعد، ويقوضون الخيام على رءوس النائمين تحتها، ويبعثرون أمتعتهم وأثاثهم فى مختلف الأنحاء . فتطير نفوس هؤلاء شعاعاً ، ويتملكهم الهلع والرعب ، ويتفرقون شذر مذر ، ويجمح كل منهم طالباً لنفسه النجاة ، لا يلتفت وراءه، ولا يلوى على أحد أيا كان ، حتى لتذهل المرضعة

عما أرضعت ، ويفر الأخ من أخيه . وتنقضى على هذه الحال فترة طويلة يعجز فى أثنائها كماة القوم ورؤساؤهم وشيوخهم عن تهدئة فزعهم ولم شملهم ؛ ولكنهم لا يزالون بهم حتى يفيقوا من ذهولهم ، ويفرخ روعهم ، وتنزل عليهم السكينة ، وتنبعث فى نفوسهم الحمية ، وتعاودهم نعرة العصبية ، ونزعة الدفاع عن الأهل والعشيرة ، فيتجمعون ويتهيئون للاشتباك مع الغزاة ، ويتسلحون بما يتاح لهم جمعه من هنا وهناك . ولكنهم يبحثون عن العدو فلا يجدون أثراً له ، ويتحسسون من أنفسهم وأهليهم فإذا هم كما كانوا قبل هذا الطائف الغريب، لم ينقص منهم فرد، ولم يصب منهم أحد بأذى بليغ ، ويتلمسون أثاثهم وأمتعتهم فيجدونها كاملة لم يأخذ العدو منها فتيلا وإن بعثرها فى مختلف الأنحاء . ولكنهم يتفقدون خيولهم فيتبين لهم من آثارها أنها قد تملكها الذعر ، فحطمت قيودها ، وانطلقت هائمة على وجوهها ، بدون أن يحاول أحد أن يعترض لها سبيلا . فيخيل إليهم أن نفراً من الجن قد اتخذوا فى هذه الليلة من دروب قريتهم ملاعب ، ومن متاعهم دمى وكرات !

وفى الحق إن الكومانش ما كان يهمهم من الجلبة التى أحدثوها إلا أن تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على وجوهها ، ليتمكنوا من الاستيلاء عليها بدون جهد ولا عناء ولا اشتباك فى حروب . وذلك أنهم فى ضوء معلوماتهم الدقيقة عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها فى مختلف شئونها ، كانوا يعرفون الطرق التى ستسلكها هذه الخيول ومواطن تجمعها، ويعلمون مدى طاقتها فى العدو ، ومتى ينال منها الإعياء حتى لا تقوى على الحركة ، ويعملون على مفاجأتها فى فترة عجزها هذا ، فيجمعونها غنيمة سهلة ثمينة ، ويؤوبون بها إلى ديارهم .

٦

تعذيب أسرى الحرب والتمثيل بهم عند الهنود الحمر

كانت القاعدة الغالبة عند معظم عشائر الهنود الحمر أن يعامل أسرى الحرب معاملة إنسانية رفيقة ، بل إننا لا نكاد نجد استثناء صارخاً لهذه القاعدة إلا عند عشائر

الأباش . فقد جرت عادة هؤلاء أن يقطعوا أصابع أسراهم وهم أحياء ، ويتخذوا من هذه الأصابع أساور وقلائد يتحلى بها الرجال للزينة والزهو ولتكون دليلا على شجاعتهم وكثرة من وقع فى أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . وكانوا بجانب ذلك يسومون أسراهم صنوفاً أخرى كثيرة من العذاب . وقد بلغوا فى تفننهم وقوة إبتكارهم لألوان التعذيب التى كانوا يصبونها على الأسرى درجة منقطعة النظير تشهد بخصب خيالهم وسعة حيلتهم ، أو بالأحرى بخصب خيال نسائهم وسعة حيلتهن ؛ فقد كان يعهد بذلك للنساء ، وكن يؤدينه على أعنف وجه ، وأشده قسوة ، وأدناه إلى طبائع التوحش والافتراس .

ولم يكن الباعث الأصلى على ذلك مجرد التلذذ برؤية الدم المهراق ؛ أو بالتعذيب والتمثيل بأجسام الناس ؛ وإنما كان الباعث عليه أن ينتزع من الأسير ، من شدة ما يسامه من الخسف ، اعتراف بضعفه وقوة قاهريه . وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق فى نظرهم إلا إذا ظهرت عليه الذلة والمسكنة ، فاعترف بضعفه ، وعدم

قدرته على احتمال ما يحتمله الكماة من الرجال، أو طلب الرحمة من آسريه . غير أنه كان من المتعذر فى الغالب أن ينتزع من الأسير اعتراف من هذا القبيل مهما بولغ فى تعذيبه ؛ فقد وصل الهنود الحمر فى اعتزازهم بأنفسهم وعشائرهم ، وترفعهم عن الظهور بمظهر الذلة والعجز ، وقدرتهم على احتمال الآلام ، إلى درجة لم يكد يصل إلى مثلها أو ما يقرب منها أى شعب آخر من شعوب الأرض . ولعل صنوف العذاب التى كان لزاماً أن يذوقها كل واحد منهم مختاراً فى أثناء مرحلة التعميد Initiaion والتى أشرنا إليها فيما سبق(انظر صفحتى ٦١، ٦٢) هى التى كان لها الفضل فى بث هذه النزعة فى نفوسهم ،وفى تدريبهم على قوة الاحتمال ، وفى مبلغ ما وصلوا إليه فى الاستخفاف بآلام الجسم والاستهانة بما يصيبه من نكال . فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية ، وتصب عليه أسواط العذاب من كل صنف ، ويأتيه الموت من كل مكان ، بدون أن يفتر لسانه عن ترديد أغنيات حماسية خاصة بهذه المناسبات تسمى : « أغانى الموت » يعدد فيها مناقبه وما أثر عنه فى ميادين الوغى من

إقدام وشجاعة ، ويزهو أنه لم ير بعد من هو أقوى منه فى ميادين الحرب أو أشد لها مراساً ، ويستخف بآسريه وبما يسومونه إياه من عذاب ، ويوجه إليهم من لاذع الإهانة ما يثير الجماد . وكلما زادوه تنكيلا زاده هذا إمعاناً فى زهوه وتحقيره إياهم . فينتهى بهم الأمر إلى اليأس من أن ينتزعوا منه ما كانوا يريدون انتزاعه من اعتراف صريح بالضعف . وحينئذ يقنعون بما دون القليل ، ويودون لو صدر عنه اعتراف ضمنى بذلك فى تأوه أو رعشة ألم . وحتى هذا الاعتراف الضمنى ما كانوا يستطيعون فى الغالب سبيلا إلى الحصول عليه . فقد كان الأسير يقطع إرباً إرباً بدون أن يفتر لسانه عن التغنى بشجاعته والتهكم بأعدائه . فتتجه جهودهم كلها حينئذ إلى العمل على إسكاته بأية وسيلة . وحتى هذه الغاية السلبية ما كانوا ليستطيعوا فى الغالب سبيلا إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير انتزاعاً من بين فكيه !

فلم يكن الباعث لهم إذن على تعذيب الأسير مجرد الرغبة فى التعذيب أو إرضاء ميول دموية ، وإنما كان ذلك

نتيجة لازمة لأمرين : أحدهما شدة حرص المنتصر على أن يعترف المقهور بقهره فى صورة ما ، وثانيهما شدة عناد المقهور وتجاهله لما حدث ولما يجرى عليه وإمعانه فى إنكار الهزيمة .

وقد زاد من اندفاعهم فى هذا السبيل علمهم أنهم سيلاقون المصير نفسه إذا وقعوا أسارى فى أيدى أعدائهم ، وأن هؤلاء لن يدخروا وسعاً فى تعذيبهم والانتقام منهم . فكانوا يعملون ، قبل أن يلاقيهم هذا المصير المهين ، على أن ينعموا بأقصى ما يمكنهم أن ينعموا به من لذة النصر ، والارتياح إلى القهر ، وإذلال الأعداء .

٧

انتزاع الدورارات من رءوس الأسرى «Le Scalpe»

اشتهر الهنود الحمر بعادة غريبة فى التمثيل بالأسرى وهى انتزاع دوراتهم بجلدها وشعرها ، وذلك أنهم كانوا يعمدون

إلى دائرة فى نحو مساحة الكف فى قمة الرأس حيث يغزر الشعر فيفصلون محيطها بمشرط عن بقية جلد الرأس ، ثم يمسكون بخصلة شعرها ، ويجذبونها جذبة قوية ، فتنفصل مع جلدها عن الرأس . وكان يكتفى أحياناً بانتزاع خصلة الشعر وحدها إذا لم يستطع انتزاع الجلد أو لم يتسع الوقت لذلك .

وما كان يجوز أن تجرى هذه العملية إلا على عدو ، أى شخص من غير أفراد العشيرة . فإذا اتفق أن أسر الهندى فرداً من قبيلته أو قتله فإن التقاليد تحرم عايه تحريماً باتاً أن ينتزع دوارته ، وتعد ذلك جرماً كبيراً يخدش الشرف والكرامة ، ويعرض مقترفه لمسئولية خطيرة .

وكان الغالب أن تجرى هذه العملية على العدو بعد موته ، أو إذا ظن أو فرض أنه مات . وإذا أجريت عليه وهو حى لم تكن فى جميع الأحوال لتؤدى إلى موته . فالجرح نفسه لم يكن خطيراً ، ولم يكن ليستغرق من جلدة الرأس إلا حيزاً ضيقاً لا يكاد يتجاوز فى مساحته باطن الكف . ولذلك كان يوجد من بين بدو السهول وساكنى القرى كثير

ممن انتزعت دواراتهم ثم التأم جرحهم وظلوا أحياء أشداء (انظر اللوحة رقم ٢٢ بصفحة ١٣٩) . وكان بعضهم لا يستنكف أنَ تظهر آثار جرحه ، على حين أن معظمهم كان يحرص على إخفائه تحت قلنسوته أو عقدة منديله خجلا من مظهر الهزيمة الذى يرمز إليه .

وكانت العشيرة تعنى بجمع ما انتزعته من رءوس أعدائها من دوارات ، وتتخذ منه مادة للتفاخر والزهو ، وآية على شجاعة رجالها وجرأتهم فى ميادين الوغى وكثرة من وقع فى أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . ولذلك كانوا يحرصون على إظهار هذه الدوارات وعرضها ، فيحملونها بأيديهم كالمذبات، ويعلقونها فى أعنة خيولهم وفى أسلحتهم وأرديتهم وسراويلهم وأمتعتهم ، ويزينون بها خيامهم ، ويرفعونها كالأعلام فى كثير من المناسبات فى وجهات منازلهم وعلى جوانبها وقممها وفى رءوس أعمدتها ، ويلصقونها فى طوق متخذ من غصن أخضر ويثبتون الطوق فى نهاية عصا طويلة يحملونها معهم أو يقيمونها كالنصب فى أفنية ديارهم (أنظر اللوحة رقم ٢٢ بصفحة ١٣٩) .

ولم تكن هذه العادة مقصورة على الهنود الحمر ، بل كانت متبعة لدى شعوب أخرى فى الدنيا القديمة نفسها . فقد ذكر هيرودوت أن السيثيين Seythes — وهم شعب بدوى همجى كان يتنقل فى العصور القديمة فى المناطق الواقعة فى الشمال الشرقى من أوربا والشمال الغربى من آسيا — كانوا يجرونها على أسرى الحرب . ويظهر أن هذا التقليد أو ما يشبهه كان متبعاً عند بعض الشعوب السامية القديمة وأن رواسب منه قد بقيت عند العرب فى الجاهلية ، فقد كانوا يجزون ناصية الأسير إذا منوا عليه ، أى أطلقوا سراحه بدون فداء . وفى هذا يقول حسان بن ثابت :

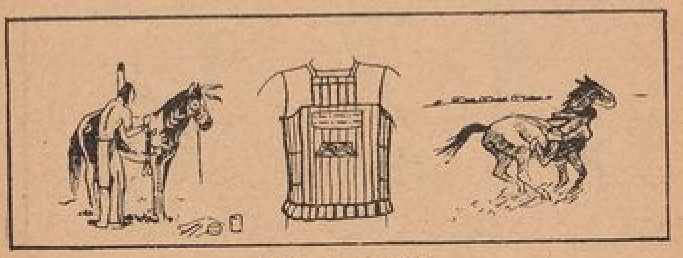
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها

ويظهر أن الهنود الحمر كان يدفعهم إلى ذلك فى الأصل بعض عقائد تتصل بعالم الأرواح والعالم العلوى . فقد كان الشعر فى نظرهم ، وخاصة شعر الدوارة ، هو رمز الروح ومقرها . فكانوا يظنون أن من تجرى عليه هذه العملية تصبح روحه نفسها أسيرة فى أيديهم فلا تستطيع أن تغادر مكمنها وتثأر لنفسها ولا أن تجلب أذى للأحياء من الناس ،



[اللوحة رقم ٢٢]

الدوارة ووجوه استخدامها (انظر ص ١٣٧)
وفى أسفل اللوحة من الناحية اليمنى
صورة تمثل شخصاً انتزعت دوارته



[اللوحة رقم ٢٣]

فى اليمين : صورة تمثل فارساً يخفى نفسه بجانب صفحة جواده (انظر صفحة ١٢٨) .

وفى الوسط: مثال من الدروع المستخدمة عند الهنود الحمر .

وفى اليسار : أحد رجال السحر يرقى الحصان بعد نقشه بألوان ورسوم خاصة قبل خروجه للحرب .

ولا يستطيع الروح الأكبر Grand Esprit أن يرفعها إلى عليين فى جنات الصيد العظيم Paradis des Grandes Chasses فتظل فى العالم السفلى أبد الآبدين .

بيد أن انتزاع الدوارات لم يكن منتشراً ، قبل دخول الأوربيين هذه القارة ، إلا عند بعض عشائر فى الشمال الشرقى ، وخاصة عشائر الإيروكيين Les Iroquois الذين يعدهم بعض الباحثين أقدم من ظهر فيهم هذا التقليد الوحشى من عشائر الهنود الحمر . أما العشائر التى كانت تسكن السهول ، وهى معظم عشائر الهنود الحمر ، كالسيو والشيين والكومانش ، فكانت إلى ذلك الحين تجهل هذا التقليد كل الجهل .

ولكن هذه العادة لم تلبث ، بعد دخول الأوربيين هذه القارة ، أن انتشرت انتشاراً كبيراً عند جميع عشائر الهنود الحمر . ويقع الوزر فى انتشارها هذا على الأوربيين أنفسهم وما جلبته مدنيتهم على هذه البلاد وأهلها من مصائب وأرزاء . فقد استحوذ على نفوس كثير من الأوربيين فى ذلك العصر هواية غريبة لجمع هذه الدوارات ، كما يهوى

كثير من الناس فى العصر الحاضر جمع طوابع البريد .
فانطلق هؤلاء ينقبون عنها فى مختلف أرجاء القارة ، ويتجشمون
فى سبيلها المشاق والأسفار ، ويتنافسون فى اقتنائها ،
ويتسابقون فى الإكثار من عددها ونوعها ، ويبتاعونها من
البدائيين بأغلى الأثمان . ونشأت فى أثناء ذلك طبقة من
التجار والوسطاء بين المنتجين والمستهلكين ، بين صائدى
الدوارات من البدائيين وهواة جمعها من الأوربيين . وأخذت
هذه الطبقة تعمل جاهدة على ترويج بضاعتها ، وإغراء
المنتجين بمختلف وسائل الإغراء على زيادة إنتاجهم ،
وحث المستهلكين على الإمعان فى هوايتهم . فأصبح من
جراء هذا كله للدوارات سوق زاخرة تسيل فيها البضاعة
منحدرة من مختلف المنابع ، ويشهد منافعها عدة طوائف ،
وتهوى إليها أفئدة كثير من الناس . ووجد البدائيون فى هذه
البضاعة السهلة الإنتاج مجالا واسعاً للربح وجمع الأموال ؛
فأخذت هذه العادة تنتقل من عشيرة لعشيرة ، وتسرى من
منطقة إلى أخرى ، حتى عمت جميع أنحاء القارة . ولم
يكد يبزغ القرن السابع عشر حتى كان « صيد » الدوارات

المهنة المحببة لجميع عشائر الهنود الحمر .

فانتشار هذه العادة لديهم ، واندفاعهم فى تيارها هذا الاندفاع ، كل ذلك كان مرجعه إذن إلى الأوربيين أنفسهم ، وكان قائماً على الأسباب الاقتصادية نفسها التى دفعتهم إلى المبالغة فى صيد الجاموس الوحشى لتقديم جلوده وألسنته إلى الشركات التى ألفها البيض للإشراف على هذه التجارة وتصديرها عقب استعمارهم لهذه البلاد . وإلى هذا العامل الاقتصادى الذى يقع وزره على الأوربيين وحدهم انضم فيما بعد عوامل الزهو والتفاخر والاعتبارات الدينية التى أشرنا إليها فى صدر هذه الفقرة ، وتضافر كل أولئك على رواج هذه السوق وحرص الهنود الحمر على تزويدها بما تحتاج إليه .

ولكن مهما يكن من شىء بصدد مسئولية الأوربيين عن انتشار هذه العادة عند الهنود الحمر ، فإن اندفاع هؤلاء فى هذا التيار لدليل على تأصل العادات الدموية وغرائز القسوة والسفك فى طباعهم ، واستخفافهم بالنفس الإنسانية ونظرهم إلى الأعداء نظرتهم إلى أنعام الصيد

٨

آداب الحرب عند الهنود الحمر

لقد كان للهنود الحمر بمختلف عشائرهم آداب حربية عالية يحرصون على احترامها ، وتشبه ما نسميه فى العصر الحاضر قواعد الاتفاقات والقوانين الدولية فى القتال ، بل تزيد عنها سمواً ونبلا من عدة وجوه .

ومن هذه الآداب أن العشيرة المقاتلة كانت تكرم وفادة من يلجأ إليها من أعدائها محتمياً بحماها ، فينعم بين ظهرانيها بأمان كامل ، ولا يجوز لأى فرد من أفرادها أن يمسه بأذى ، مهما كان مبلغ جرمه فى جنبها ومبلغ عداوتها له وحرصها على هلاكه ، وحتى لو كان التجاؤه هذا نتيجة اضطرارية لضغط حوادث القتال . بل لقد كانت رعايتهم تلازمه إذا أزمع الرجوع إلى أهله . فكانوا فى هذه الحالة يذللون له سبل الرحيل ، ويهدونه معالم الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ، ويزودونه بما عسى أن يحتاج إليه فى رحلته

من وسائل العيش والانتقال والدفاع عن النفس ، فيمدونه بزاد كاف وأسلحة ماضية وفرس مُطار .

ومن آداب القتال عندهم كذلك أن غير المقاتلين من الأعداء ، وهم النساء والأطفال ، كان يحرم تحريماً باتاً أن ينالهم أذى فى أثناء الحروب . وكان هذا التقليد موضع اتفاق عند جميع عشائرهم حتى أشدها وحشية وقسوة فى القتال ، وموضع احترام لدى قوادهم ورؤسائهم حتى أشدهم تعطشاً إلى الدماء . فقد أسر المكسيكيون مرة فى أثناء اشتباكهم مع عشائر الأباش التى ذكرنا فيما سبق مبلغ قسوتها فى القتال قائداً من قوادها يدعى جيرونيمو Geronimo قد اشتهر بالعنف والتجرد من الرحمة فى معاملة الأعداء . فأخذ هذا القائد ، كعادة الأسرى من عشائر الهنود الحمر ، يعدد مناقبه ، وما أثر عنه فى ميادين الوغى من شجاعة وإقدام ، ويفخر بأن آلافاً مؤلفة من الأعداء قد لقوا حتفهم على يديه وأن آلافاً مؤلفة من الأسرى قد جرّعهم من غصص التعذيب والتمثيل والنكال ما لم يسمع بمثله أحد من العالمين ؛ ولم يأسف إلا لشىء واحد وهو

أنه لن يتاح له بعد اليوم قتل أحد من أعدائه ولا تعذيبه ؛ ولكنه لم يفته أن يضيف إلى مواطن فخره « أنه لم يرق قط دم طفل أو امرأة عن عمد ولا عن خطأ فى أثناء القتال » ؛ مع أنه لو كان قد أقدم على شىء من ذلك لكان له بعض العذر ولكان معاقبا بمثل ما عوقب به هو بالذات على أيدى الأوربيين ، وذلك أن امرأته وأمه وأطفاله الصغار قد اختطفهم المكسيكيون غدراً فى غير حرب وذبحوهم ذبح الأنعام .

ومن آداب القتال عندهم كذلك أنه إذا لم يرض المحاربون برياسة قائد آلت إليه القيادة لما أبداه من شجاعة فى القتال ، أنهوا إليه ذلك بطرق منظمة مضبوطة حددها العرف وأقرتها التقاليد ؛ فإن أبى أن يذعن لرغباتهم ، لا تحدثهم نفوسهم مطلقاً بقتله غيلة أو التخلص منه بطرق غادرة ، وإنما ينذرونه أن يستعد للمبارزة ، فإن تغلب خضعوا لرياسته ، وإلا نزل هو على ما يريدون .

ومن هذه الآداب كذلك أن معاهدات التحالف والتهادن بين العشائر كانت مقدسة كل التقديس. فمع أنها لم تكن أكثر

من عبارات يرددها الرؤساء وهم يصطلون حول موقد ملتهب الجمر ويتبادلون قصبة تدخين خاصة تسمى قصبة السلام Calumet de la paix كانت تعد ميثاقاً غليظاً يخضع له كل من شهده أو اشترك فى إجرائه ، ولا يمكن لأية قوة أو أى حادث طارىء أن يثنيهم عن الوفاء به . (وقصبة التدخين هذه أنبوبة طويلة تنتهى بوعاء صغير يوضع فيه الطباق ؛ وقد نقلت عنها القصبة التى تستخدم الآن بعد تقصير أنبوبتها . هذا ومن المعروف أن عادة تدخين الطباق نفسها قد أخذها العالم كله عن الهنود الحمر وأنها لم تكن معروفة قبل كشف الدنيا الجديدة . وقصبة السلام كانت تمتاز بأنها مزينة بريش النسر وبقطع حمراء من الجلد . (انظر صورتها فى اللوحة رقم ٢٥ بصفحة ١٥٠) .

ومن هذه الآداب كذلك أنه ما كان يصح أن يجرى قتال بالليل . وكان الغرض من ذلك أن يجرى القتال فى وقت تمكن فيه مراقبة أعمال الفريقين والوقوف على مبلغ اتفاقها مع ما تواضع عليه القوم من قواعد فى الحرب ، وحتى لا يعوق الظلام محارباً عن مراعاة هذه القواعد أو يؤدى إلى

مخالفته إياها عن غير قصد ، وحتى تستبين الأهداف فلا يصاب ما لا تصح إصابته ويستثنى من ذلك غارات الكومانش التى تكلمنا عنها فيما سبق (انظر ص١٢٩ وتوابعها). غير أن هذه الغارات لم تكن حروباً بالمعنى الصحيح ، وما كان يقصد منها منازلة العدو ؛ وإنما كانت ترمى إلى مجرد إحداث جلبة قوية مفاجئة حتى تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على وجوهها ليتمكن الكومانش من الاستيلاء عليها فيما بعد بدون جهد ولا عناء ولا اشتباك فى قتال .

ومن هذه الآداب كذلك أن الشجاعة والإقدام فى القتال كانا من أكبر الفضائل التى يمتاز بها المحارب عند الهنود الحمر ، كما أن الضعف والخور كانا من أكبر المعرات التى تلصق به . فما كان يباح أن يستسلم المحارب لأعدائه مهما تقطعت به الأسباب ، بل كان يجب عليه أن يظل يقاتل حتى يغلب على أمره فيقتل أو يؤسر ؛ وما كان يباح أن يصدر منه أو يبدو عليه ما ينم على تألمه مما يوقعه به الأعداء من عذاب إذا ظفروا به أسيراً مهما كان مبلغ هذا العذاب . وكانوا يكبرون الإقدام والشجاعة حتى عند أعدائهم أنفسهم .



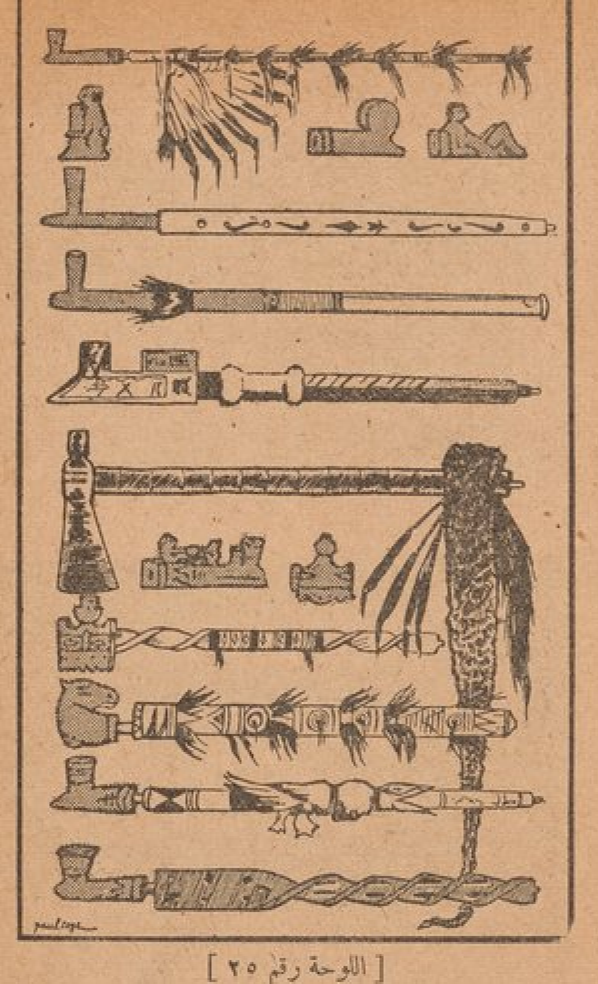


[اللوحة رقم ٢٤]

زعيمان شهيران من زعماء عشيرة السيو

فى اليمين رد ــ كلود
Red - Cloud

وفى الشمال سيتنج ــ بل
Sitting - Bull



[اللوحة رقم ٢٥]

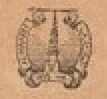
أنواع من قصبة التدخين

وأعلاها هي «قصبة السلام» (انظر ص ١٤٧)

فى موقعة « القرن الكبير Big Horn » التى سجلت أمجد صفحة للهنود الحمر فى تاريخ صراعهم مع الأوربيين ، فقد حصدوا فيها الجيش الأمريكى حصداً وأبادوه على بكرة أبيه ، فى هذه الموقعة لم تترك جثة بدون انتزاع دوارتها إلا جثة الجنرال كاستر Custer الذى كان قائداً عاماً للجيش الأمريكى . وكان هذا استثناء من قواعد الحرب عند الهنود الحمر ؛ وخاصة لأن صاحب هذه الجثة كان القائد العام نفسه ، وأن دوارة شخص هذا شأنه كانت خليقة أن تكون أبلغ رمز لانتصارهم . وقد سئل فيما بعد سيتينج بول Sitting-Bull (انظر صورة هذا القائد وقائد آخر لا يقل عنه شهرة Red Cloud فى اللوحة رقم ٢٤ بصفحة ١٤٩) القائد العام لعشائر السيو التى يرجع إليها الفضل فى إحراز هذا النصر عن السبب فى هذا الاستثناء ، فأجاب بأن القائد الأمريكى كان رجلا شجاعاً ، فقد ظل يقاتل حتى فنى جميع أفراد جيشه ، وبقى هو وحده ، فوجد نفسه بين خطتين : إما دم وإما إسار ، فآثر الأولى ورأى أن القتل أجدر بالحر ، فما ضعف ولا وهن ولا استكان ولا

فكر فى إلقاء سلاحه ، بل ظل يقاتل قتال المستميت بمفرده جيشاً يبلغ عدة آلاف حتى أثخنته الجراح وأصبح كتلة متحركة من الدم ، وخر صريعاً وسيفه فى صدور أعدائه . فمن أجل ذلك كرمنا جثته بعد موته ، كما كرم نفسه فى حياته ، وأبقينا على دوارته إكباراً لمواقف الشجاعة التى ختم بها تاريخه المجيد .

على عبد الواحد وافى



دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى : ٥ شارع مسبيرو بالقاهرة تليفون ٤٩٨٦٨

فرع الفجالة : ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة تليفون ٤٩٨٦٦

فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على بالإسكندرية تليفون ٢٣٥٨٨